الأجوبة المُسْكِتة

في نثر "بلاغات النساء" لـ "طيفور الخراساني"

دراسة بلاغية

إعداد

د / شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

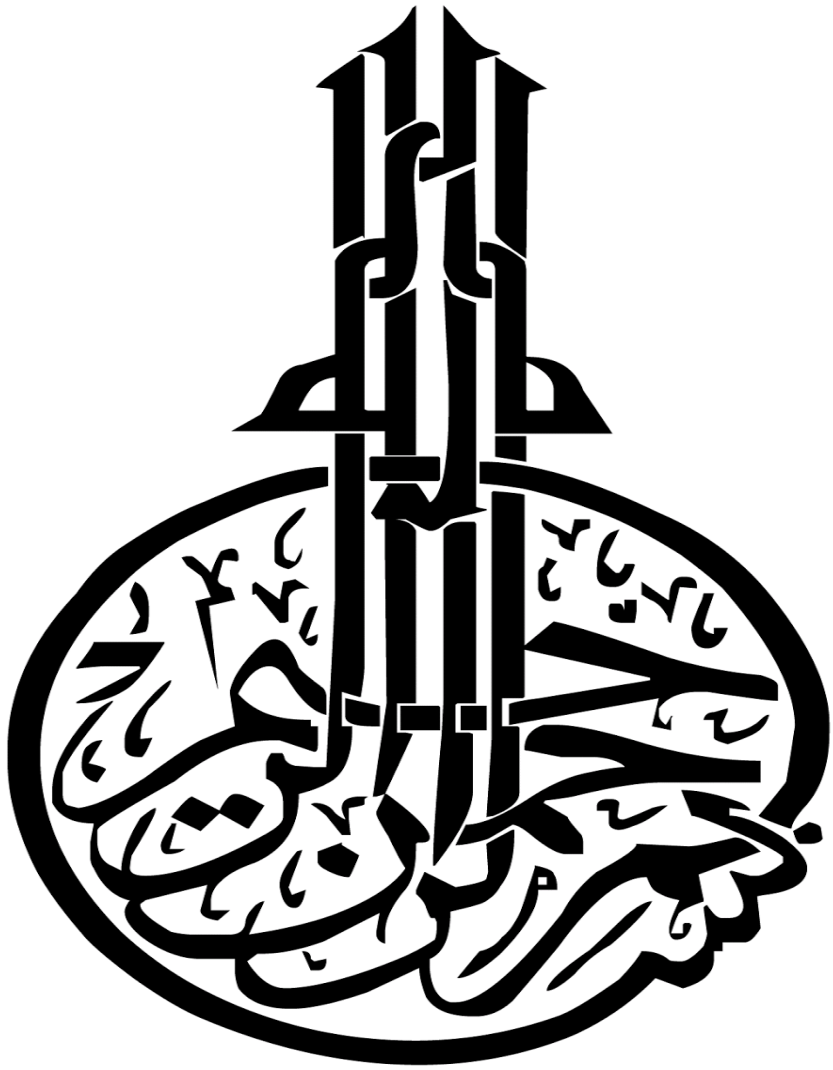

الأجوبة المُسكِتة في نثر"بلاغات النساء"لـ"طيفور الخراساني" دراسة بلاغية

د. شيماء عبد الرحيم توفيق محمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد-كلية الدراسات الإسلامية والعربيةللبنات بالقاهرة- جامعة الأزهر-جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:
shimobosho27@yahoo.com

ملخص البحث:

يعد كتاب "بلاغات النساء" لـ"طيفور الخراساني" بحرًا حوىٰ في أحشائه دررًا كامنة لبليغات الجاهلية وصدر الإسلام، وهو من الكتب المتخصصة التي جمعت أدب النساء البليغ شعرا ونثرا، وقدمت نماذج عليا تنم عن سرعة بديهة، وتوقّد خاطر، وذكاء حادّ، وصدع بالحق دون تهيب، مبرهنا أن المرأة قادرة علىٰ أن تصنع من ضعفها قوة في مواجهة الرأي الآخر، وهذه القوة لم يُكتف فيها ببلاغة القول دون إقامة حجة عقلية تدعمها العاطفة، وسُموّ المنطق، وفصل الخطاب، وجلاء الغاية؛ ولذلك تنوعت الأساليب البلاغية التي اتكأت عليها البليغات لإسكات الخصم.

ويهدف البحث إلىٰ استقراء نثر "بلاغات النساء"؛ لبيان الخصائص البلاغية التي ميزت أجوبة البليغات، وأسكتت مَن يعارضهن، أو حاول هضم حقوقهن، والإساءة لذويهن، ومن هنا حاول البحث بيان بلاغة أجوبة النساء المسكتة ذوات الرأي والجزالة، وبسط وإيضاح ما استغلق منها، ورفع منزلتها علىٰ منصة البيان، وإجلاء فرائدها، ليقف الناظر علىٰ أغراضها، ويعلم بديّا أنها ما نطقت إلا لتذبّ أذىٰ عن نفسها، فحشدت طاقات اللغة،

واستثمرت وسائل بيانية بعينها ساعدتها علىٰ نيل بُغيتها، وهذا الجانب لم يتناول بالدراسة البلاغية من قبل.

الكلمات المفتاحية: الأجوبة – المسكتة– بلاغات النساء– نثر–بلاغية.

The answers caught in the prose of the women's communications of "Tayfor al-Khorasani" are a rhetorical study.

Dr. Shaimaa Abdul Rahim Tawfiq Mohammed
Professor of Rhetoric and Criticism Assistant - Faculty of Islamic and Arab Studies of Girls in Cairo - Al-Azhar University - Arab Republic of Egypt.
E-mail: shimobosho27@yahoo.com

Abstract:

The book “Balaghat al-Nisaa” by “Tayfour al-Khorasani” is a sea-based book that contained in its guts latent pearls of pre-Islamic rhetoric and early Islam، and it is one of the specialized books that compiled eloquent women's literature in poetry and prose And he presented supreme models that show spontaniety، sparkling sake، sharp intelligence، and cracking of truth without fear، proving that women are able to make from their weaknesses strength in the face of the other opinion، and this was not satisfied with the eloquence of saying without establishing a mental argument supported by emotion and the transcendence of reason. Separation of speech، clarity of purpose; Therefore، the rhetorical methods relied on by the reporting to silence the opponent were varied.

The research aims to extrapolate the prose of “Women’s Rhetoric” by Ibn Tayfour to show the rhetorical characteristics that characterized the answers of the rhetoric and silence those who oppose them، or who tried to digest their rights and offend their families، and from here the research tried to eloquently eloquent the answers of women who have an opinion and majesty، and to simplify and clarify what He closed in on her، raised her position on the platform of the statement، and evacuated her

characteristics، so that the beholder could stand on her purposes، and initially knew that she had only spoken in order to avoid harm to herself، so she mobilized the energies of the language، and invested specific graphic means that helped her achieve her aim، and this aspect was not addressed by rhetorical study before.

Keywords: Answers - Silenced - Women's Communications - Prose - Rhetorical.

مقدمة

اعتاد الشعراء العرب أن يصفوا المرأة العربية في شعرهم صورة للجمال الطبعي الصامت الجامع للحسن والسحر، واعتبروا حجب المرأة وصونها وحرمتها أمورا واجبة الحماية والصون؛ ولذلك لم يرد إلينا من شعر المرأة الجاهلية كثيرا، وجاء الإسلام فأعز المرأة وسمح لها بالتعبير عن رأيها بقوة وجرأة، ونظر إلىٰ الجانب العقلي لها فأعلىٰ شأنه ضامنا لها كافة الحقوق التي إن تدبرت في حكمة مشروعيتها علمت أن الإسلام لم يعاملها كمظهر جمالي من مظاهر الطبيعة، بل اهتم بتكوين عقلها وتثقيفها، وبرزت هذه المثاقفات العقلية مثوّرة لألسنة النساء فانسالت أدبا خالدًا جمعه "ابن طيفور" في سفر بسيط، ووسمه بـ"بلاغات النساء وطرائف كلامهن، وملح نوادرهن، وأخبار ذوات الرأي منهن، وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام "، وهو باكورة الكتب المتخصصة التي ألفت في القرن الثالث الهجري مقتصرة علىٰ جمع أخبار النساء شعرا ونثرا، ورغم أن الترتيب الزمني للجاهلية قبل الإسلام إلا أن "ابن طيفور" ابتدأه بكلام أمهات المؤمنين أولا، ثم الصحابيات الوافدات علىٰ "معاوية"، ثم كلام الجاهليات، يتبعه كلام لنساء متفرقات من الجاهليات، والإسلاميات، والمحدثات من الإماء وغيرهن، ثم بلاغات النساء في منازعات الأزواج في المدح والذم، وصفاتهن في منثور الكلام ومنظومه، ثم ذكر طرفا من طرائفهن، ثم أخبار ذوات الرأي منهن والجزالة، ومقامتهن، وأشعارهن في كل فن ، فلم يَسِر علىٰ منهج محدد في الترتيب والتبويب ولكنه قدم صورة عن حياة المرأة وواقعها الاجتماعي والفكري والأدبي، وخير من يمتثل به النساء خلقا وعقلا ولسانا أم المؤمنين "عائشة"

ﷺ؛ ولذلك افتتح ببلاغة كلامها كتابه الذي عنونه بـ"بلاغات النساء"، ولم يرتض أن يعنونه بما هو معروف في الكتب التي تجمع الآداب كـ "أدب النساء"، أو "أخبار النساء"، أو "مختارات"، أو "الأدب النسوي"، وهذا يشير إلىٰ انتقاء الكلام المنقول وانتخابه وجودته نثرا كان أو شعرا، كما يبدو من غزارة مادة الكتاب الحراك الأدبي والخصوبة الفكرية للنساء اللاتي نقل عنهن الكلام، فرقىٰ "ابن طيفور" بالمرأة، فلم يجمع مأثورات الغزل وأشعار النسيب التي قيلت فيهن، أو الممازحات العبثية التي يتجاذبونها، بل نقل عنهن ما تمخضت عنه عقولهن، ولهجت به ألسنتهن مستخدمات بلاغة الفكر واللغة في الحياة السياسية والاجتماعية؛ لرد اعتداء وقع عليهن، أو درأ تهمة نُسبت إليهن، أو رد حق سُلب منهن.

وقد وصف الله ـ تعالىٰ جده ـ النساء بعدم الإبانة في الخصام، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾(الزخرف:١٨)، والبين: في كلام العرب هو: الوصل والفصل[1]، وعلىٰ معنىٰ الفصل يفُسَّر قوله: "غير مبين"، أي: لا يصل كلامه في موقف الجدل، ولا يغلب بالحجة؛ لقصر نَفَسِه، وضَعف جبلي فطر عليه، وقد اسُتنبط هذا المعنىٰ من استقراء كتاب " بلاغات النساء" لـ"طيفور الخراساني"، فعند مطالعة الكتاب وجد أن ورود الجمل القصيرة وتتابعها بنسبة كبيرة ظاهرة لافتة للنظر، ترجع إلىٰ فطرة جبلية تكوينية، فالعقل البشري الأنثوي عقل يتصف بالتعميم، وهو ما يجعله يفكر بأشياء مختلفة في آن واحد، وهذا علىٰ

(١) – لسان العرب . ابن منظور. مادة (بين). دار المعارف.د.ت.

عكس العقل البشري الذكوري التخصصي الذي يستطيع الرجل من خلاله التركيز في شيء واحد يقوم به[1]، وهذا المعنىٰ هو ما وصفت به المرأة في الكتاب الذي لا ينطق عن الهوىٰ بأنها ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: لا تصل كلامها، ولا يمتد نَفَسُها؛ لكثرة الأفكار التي تدور بخلدها، فنجدها تحاول استقصاء جميع جوانب الشيء ولكن علىٰ شكل جزئيات متتابعة في جمل قصيرة، وهذا لا ينفي عنها الفصاحة والبيان واللَّسَن، ومن هذا المنطلق حاول هذا البحث تتبع أجوبة النساء المُسكتة في نثر "بلاغات النساء" لـ"طيفور الخراساني"؛ لبيان الأساليب البلاغية التي وردت في كلام البليغات وميزت أجوبتهن.

أهمية البحث:

تهدف الدراسة إلىٰ بيان بلاغة أجوبة النساء المسكتة ذوات الرأي والجزالة، وبسط وإيضاح ما استغلق منها، ورفع منزلتها علىٰ منصة البيان، وإجلاء فرائدها، ليقف الناظر علىٰ أغراضها، ويعلم بديّا أنها ما نطقت إلا لتذب أذىٰ عن نفسها، فحشدت طاقات اللغة، واستثمرت وسائل بيانية بعينها ساعدتها علىٰ نيل بغيتها، وهذا الجانب لم يتناول بالدراسة البلاغية من قبل.

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن يقسم إلىٰ ثلاثة فصول: الفصل الأول:مباحث علم المعاني التي شكلت ظاهرة بارزة في أجوبة النساء وهي: التكرار، أسلوب الحكيم، العدول عن النمطية: خروج الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر:

(١)- سايكولوجية الرجل والمرأة.د. طارق كمال النعيمي، ص٢٩، ط١، دار إحياء العلوم .بيروت١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

تنزيل غير المنكر منزلة المنكر – التعبير بالمظهر في موضع المضمر، والفصل الثاني يشتمل علىٰ مباحث علم البيان: التشبيه، الاستعارة، أما الكناية فتم دراستها في بحث تمّ ذكره في الدراسات السابقة، والفصل الثالث: يشتمل علىٰ المحسنات البديعية التي شكلت ظاهرة لافتة للنظر تستحق الدراسة وهي علىٰ النحو التالي: السجع، الجناس، الطباق، الاقتباس.

الدراسات السابقة:

١ –كتاب "بلاغات النساء" لابن طيفور دراسة نقدية. سعاد مسعودي، رسالة ماجستير،جامعة مولود معمري. تيزي وزو.كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. الجزائر ٢٠١٢م، وهي دراسة أدبية لم تتعرض لدراسة البلاغة.

٢– البنية السردية للخبر في كتاب بلاغات النساء. عقيل مسلم عبد الحسين، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مج ٣٢، ع١، جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية، العراق ٢٠٠٧م.

٣– عتبات النص الخطاب المقدماتي في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور أنموذجا. صلوح مصلح سعيد السريحي، مجلة جامعة الطائف للعلوم الإنسانية، مج٣، ع١٢، السعودية ٢٠١٥م.

٤– الخبر ووظائفه في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور، نجلاء عيدان عبد الكريم، بحث منشور بالمنتدىٰ الوطني لأبحاث الفكر والثقافة ع٢٣، العراق ٢٠١٥م

٥– بلاغة المجادلة: قراءة في بلاغات النساء السردية. حسن محمد النعمي،مجلة الدراسات العربية، ع ٨، مج١ جامعة المنيا – كلية دار العلوم٢٠٠٣م، وهي دراسة محصورة في ثلاثة نصوص من الكتاب:

الأول:"هند بنت النعمان والحجاج الثقفي"، والثاني:"كلام امرأة أبي الأسود الدؤلي"، والثالث:"قصة دارمية الحجونية مع معاوية بن أبي سفيان"، وهي دراسة أسلوبية لنسق الجدل والمجادلة بين الرجل والمرأة، وقراءة تحليلية تأويلية تعتمد علىٰ الربط بين الخطابات اللغوية والتاريخية والاجتماعية بحثا عن وعي أكبر في سياقات هذه النصوص، ورغبة في الكشف عن سردية المجادلة وعمق دلالتها.

٦- **سمات الأدب النسائي في بلاغات النساء**. لأحمد بن طيفور، عبداللطيف الأرناؤوط، مج ١٣، ع٥٠، اتحاد الكتاب العرب١٩٩٣م.

٧- **الراوى العين في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور**. صلوح مصلح سعيد السريحي،ع١٧، مجلة كلية الآداب واللغات، - كلية الآداب واللغات جامعة بسكرة٢٠١٥ م.

٨- **أسلوب الكناية عن الصفة في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور**، خليل عبد السادة إبراهيم الهلال وزينب عبد الله كاظم، مج٩، ع٢٧، جامعة الكوفة - كلية الآداب ٢٠١٦

٩-**أسلوب التشبيه المرسل في كتاب بلاغات النساءلابن طيفور ت ٢٨٠هـ** ، خليل عبدالسادة إبراهيم الهلال وزينب عبد الله كاظم، مجلة اللغة العربية وآدابها،ع٢١، كلية الآداب. جامعة الكوفة ٢٠١٤م.

١٠- **المروي له ودوره في البنية الحكائية في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور ٢٨٠هـ**، صلوح مصلوح سعيد، مجلة جذور، ج٤١، النادي الأدبي الثقافي بجدة ٢٠١٥م.

١١- **جماليات السرد النسوي في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور**. بسمة محيسن القثامي، مجلة كلية الآداب. جامعة المنوفية ٢٠١٩م.

١٢- أساليب الانشاء في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠هـ. محمود ياسين عوض سيد شناوى، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بالقاهرة ٢٠٠٨م.

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة علىٰ المنهج الوصفي الذي يقدم الإيضاحات والشروح من خلال الملاحظة، والاستقراء، والتأمل، والتدبر، والتذوق مع تجنب التهور والسبق إلىٰ الحكم قبل النظر، وتحليل النصوص وتقسيمها إلىٰ أجزاء حسب ورود الفنون البلاغية، ثم التأليف والتركيب واستقراء جميع النصوص، ووصف الظاهرة البلاغية ثم انتقاء النماذج للوصول إلىٰ نتائج كلية.

أسئلة البحث:

يجيب البحث عن سؤالات يثيرها النظر في أقوال النساء:

س- لماذا كان غالب اقتباس سيدات بيت النبوة من القرءان الكريم ولم يتمثلن بالشعر كباقي النساء؟

س- لماذا تميز أسلوب النساء بالجمل القصيرة الفعلية المتتابعة دون الجمل الطوال؟

س- لماذا لجأت النساء إلىٰ أسلوب القسم وتوكيد كلامهن؟

س- لماذا برز السجع في بلاغات النساء وكثرت الجمل المتوازنة؟

س- هل كانت الغاية من مخاطبات النساء الإصلاح والإقناع دائما أم أن الغاية خطاب العقل؟

كتبته:
شيماء توفيق
القاهرة

تمهيد

خُلق آدم عليه السلام أولا، وخُلقت حواء من ضلعه فكانت بجانبه في كل لحظات حياته، ثم تناسلت الذراري، وتشعبت فروعها، فكان رحمها وعاءه، وحجرها فناءه، وثديها سقاءه، ثم تعهدته بالتربية والحنان طفلا فشابا، ثم اكتهل وهو بجانب امرأة تبادله المودة والرحمة، ويسكن إليها، فهي أنسه في جميع مراحله العمرية.

لم تقتصر مهام المرأة علىٰ القيام بأعباء البيت وتربية الأطفال، وإن كانت الأخيرة هي أسمىٰ مهمة تؤديها امرأة صالحة، تنبت جيلا خصبا صالحا مصلحا، إنها مسؤولية من الأهمية بمكان، إنها حجر الأساس الذي تبنىٰ عليه الأسر والمجتمعات الصالحة؛ ولذا كان الاتجاه إلىٰ تعليم الفتيات وتبصيرهن بأمور الحياة لا يقل أهمية عن تعليم الفتيان، فإذا كان الفتيان هم الشعلة التي تضيء في شتىٰ مجالات الحياة فإن الفتيات هن الزناد الذي يقدح هذه الشعلة ويزكيها، وتعليمها وتهذيبها بشتىٰ العلوم ليس بدعا، فهي شقيقة الرجل وسكنه، وشريكته حياة وعلما، أدبا وتثقيفا، لها من العقل والفكر ما لا يقل عنه، فكم برز من نساء أديبات فصيحات في الشعر والخطابة لا يقللن فصاحة وبيانا عن الرجال؟

فالمرأة ملكة، وشاعرة، وناقدة، وخطيبة، وصدِّيقة، ومحدِّثة، ومعلِّمة، ملكة سبأ التي قصّ القرآن الكريم من خبرها ما كان، وبفضل عقلها وحكمتها ودُربتها أنقذت قومها من براثن الكفر والهلاك، وامرأت عمران نذرت ما في بطنها لله تعالىٰ، فلما وضعت وعلمت أنه مولودها أنثىٰ لم تستنكف أن تهبه لله، وامرأت فرعون إذ تضرعت لربها أن ينجيها من فرعون وعمله، وينجيها

من القوم الظالمين، وكما قص القرآن الكريم أمثلة لنساء حكيمات عاقلات ذكر أمثلة لنساء خبيثات ماكرات عديمات العقل والحكمة كامرأة أبي لهب، وامرأت نوح وامرأت لوط، وتخصيص هؤلاء بالذكر في القرآن العظيم ليس تسلية وتطرية، وتجديدا لنشاط السامع ليُقبل، بل لأخذ العبرة والعظة، لافرق بين أن يكون المثال ذكرا أو أنثىٰ، بل إن هذه الأمثلة ذات أثر قوي فعال؛ لكون هؤلاء النسوة المخصوصات بالذكر بأفعالهن دون أسمائهن أثرا واضحا في مسيرة أمم، فمنهن زوجا نبي، ومنهن امرأت ملك، ومنهن أمّ نبي، وطبعي أن يكون لدور المرأة أثر في توجيه الحياة، فامرأت نوح كانت مثالا لعصيان الرب والزوج، وكان ابنها مثالا لعقوق الأب، وامرأت لوط كانت سببا لهلاك قومها، وامرأت فرعون كانت سببا لإيمان بعض قومها، و"مريم" كانت مثالا لطاعة الله فكان ابنها مثالا لبرّ الوالدة، وتتكرر مثل هذه النماذج في كل المجتمعات إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها

ولقد كانت النساء قبل مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ يعشن عصر الفصاحة والتباري باللسن والبيان، وقد وصف القرآن الكريم قوة بيان العرب، وبلاغة ألسنتهم، واللدد عند الخصومة ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (الأحزاب:١٩)، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾(مريم:٩٧)، وكانوا يحتفلون لميلاد شاعر "وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهىٰ حكمتهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"[1]،

(١) – طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي، قرأه:محمود شاكر، السفر الأول، ص٢٤، دار المدني بجدة.د.ت.

وكانوا يذمون الحصر، ويؤنبون العيّ، وإذا كان هذا حال الرجال فليس من الطبعي أن تكون النساء بمعزل عنه، فإن لم يّقُلن تأثرت سجيتهن بما يُروىٰ علىٰ مسامعهن، فيميزن الكلام بعضه من بعض، وإذاكانت كتب الأدب مثل "البيان والتبيين" لم تذكر كثيرا من النساء البليغات، فقد يكون ذلك بسبب تشاغل النساء بتربية الولد، وقصرهن في الخيام فلا يختلطن، وتولي الرجال تدبير أمور المعيشة الشظفة، فإن هذا لا يعني عدم وجود فصيحات لَقِنات: "ومن أهل الدهاء والنكراء، ومن أهل اللسن واللَّقَن، والجواب العجيب، والكلام الفصيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: هند بنت الخس، وهي الزرقاء، وجمعة بنت حابس"(١)، ووردت أسماء كثيرة لشاعرات في العصرين الجاهلي والإسلامي، فأورد "بشير يموت" أربع وثلاثين ومئة اسما لشاعرات في عصر الجاهلية، وخمسين بعد المئتين لشاعرات في عصر الإسلام(٢)، وكانت أمُّ المؤمنِينَ "عائشة" رضي الله عنها مِنْ الفُقهاء والمحدِّثين، وكانت تستمع الهدي النبوي من حجرتها، ولو كان ذلك مختصا بالرجال لصرفها النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وكانت تراجع إذا سمعت شيئا لم تفهمه حتىٰ تعرفه، حدثنا سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا نافع بن عمر قال: حدثني ابن أبي مليكة "أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئا لا

(١) – البيان والتبيين. الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ١/ ٣١٢، مكتبة الخانجي.د.ت.

(٢) – ينظر شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام. جمعه: بشير يموت، ط١،المكتبة الأهلية.بيروت ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م.

تعرفه إلا راجعت فيه حتىٰ تعرفه، وأن النبي ﷺقال:من حوسب عُذب، قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالىٰ:{ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك"[1]، وكانت أم المؤمنين "أم سلمة" صاحبة عقل ولسان، كما اشتهرت "الخنساء" المخضرمة بشعر الرثاء ووضعها "ابن سلام" في طبقة أصحاب المراثي[2]، وفُضِّل شعرها علىٰ شعر الرجال، وبتتبع كتاب"بلاغات النساء" محل الدراسة يظهر أن النساء لم يكن بمعزل عن ساحة الأدب، فكن خطيبات مفوهات، وشاعرات بليغات، فما جرىٰ علىٰ ألسنتهن من أجوبة أو خطب ألقينها يتبين أنهن بليغات مفحمات متمرنات علىٰ القول، وحكيمات لا يفزعن عند البداهة، قويات الرأي، ثابتات الجنان، فلم يهبن أميرا أو خليفة، ولم يمنعهن الحياء أن يطالبن بحقوقهن عند غصبها، ولم تمنعهن سطوة الخليفة وبطشه من قول الحق، وإنه لحري بهذا الكتاب أن يكون في أيدي النساء ليتعلمن فنون القول، ومهارة الرد، وسرعة البديهة، وشجاعة القلب، وشدة العريكة في عصر اعتركت المرأة فيه ميادين الحياة المختلفة عركا، وأن يشغلن أوقاتهن بما هو أجدىٰ من مخالطة سفيهات الرأي والنمامات، فيكون للأدب نفع خلقي واجتماعي تعم آثاره مختلف منازع الحياة.

---

(١) – صحيح البخاري. أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ص ٢٩ ، حديث رقم١٠٣، كتاب (العلم) باب (من يسمع شيئا فراجع فيه حتىٰ يعرفه)، قطاع الثقافة.أخبار اليوم.د.ت.

(٢)– ينظر طبقات فحول الشعراء ص٢١٠

التعريف بمؤلف الكتاب[1]:

أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المروزي الأصل أحد البلغاء، الشعراء، الرواة، المؤرخين، ولد وتوفي ببغداد (٢٠٤ – ٢٨٠ هـ) (٨١٩ – ٨٩٣ م) من الأدباء الظرفاء، ،كان معاصرا لأعلام الفكر الإسلامي ورواد المعرفة العربية مثل: "ابن قتيبة الدينوري" ت (٢٧٦)هـ، و"أبي حنيفة

---

(١)ـ ينظر الوافي بالوفيات. صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي . أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ،٧/ ٧، دار إحياء التراث – بيروت١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م، سير أعلام النبلاء. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . تح:صالح السمر، أشرف علىٰ التحقيق:شعيب الأرنؤوط، ١٢/ ٥٥٣، مؤسسة الرسالة١٤١٨هـ ـ١٩٩٦م، الأوراق قسم أخبار الشعراء. أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن عبد الله الصولي، شركة أمل، القاهرة١٤٢٥هـ، ذم الثقلاء. محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام، تح: د. مأمون محمود ياسين، ط١، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن كثيرـ الشارقة ١٤١٢هـ، تاريخ جرجان .أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني، تح: محمد عبد المعيد خان، ط٤، عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، طبقات النسابين. بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٦٩،ط١، دار الرشد، الرياض١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، معجم الأدباء .إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ١/ ٢٨٢ وما بعدها، ط١، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م، معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة، ١٥/ ٤٣، مكتبة المثنىٰ – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت،.د.ت، الأعلام. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ١/ ١٤١، ط١٥، دار العلم للملايين، أيار / مايو ٢٠٠٢ م، مناهج التأليف عند العلماء العرب.مصطفىٰ الشكعة،ص١٩١وما بعدها، ط١٥، دار العلم للملايين، آب/ أغسطس٢٠٠٤ م.

الدينوري" ت(٢٨٢)هـ، و"أبي العباس المبرد" ت(٢٨٦)هـ، و"أبي العباس ثعلب" ت (٢٩١)هـ، روىٰ عن: عمر بن شبة وأحمد بن الهيثم السامي، وعبد الله بن سعيد الوراق وغيرهم، روىٰ عنه: ابنه عبيد الله ومحمد بن خلف بن المرزبان، وحدث عنه: جعفر بن حمدان صاحب كتاب "الباهر"، كان جميل الأخلاق، ظريف المعاشرة، صاحب طرف وملح، من أهل الفهم المذكورين بالعلم، اتهم الثقات الأعلام بالكذب، فلم يسلم بدوره من أن يجد من يخلع عليه الصفات نفسها، فقيل عنه "..... صحفىٰ حاطب ليل، يشترط فىٰ كتبه اختيار الشعر الجيد ويأتىٰ بالرديء، ويزعم أنه يقلل فيحسن، ويكثر فيسىٰء، ثم يحكىٰ الكذب، ويخطيء في التاريخ [و] في نسب الشعر. قال أبو بكر: وقد رأيته بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين وقدمها إلىٰ أحمد ابن علىٰ المادرائىٰ وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة، فلما رأيته صحفيا لم أر عنده ما أريد تركته، ويعز علىٰ أن أذكر أحدا من أهل الأدب بسوء وأن استخفه، ولكن لابد من أن نعطىٰ العلم حقه، ونضع الحق موضعه."[1].

وفاته:

ترجم "الذهبي" لـ"لمنتصر بالله" فذكر أن "أحمد بن أبي طاهر" كان طبيبا له "...فتحيلوا إلىٰ أن دسوا إلىٰ طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة، فمات منها.ويقال: إن

(١)- الأوراق قسم أخبار الشعراء. أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن عبد الله الصولي،١/ ٢١٠، شركة أمل، القاهرة١٤٢٥ هـ

طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة، فهلك."[1] ، ودفن بباب الشام ببغداد.

مؤلفاته:

أسهم "ابن طيفور" في إثراء المكتبة العربية بالعديد من الكتب النفيسة والمؤلفات القيمة، فألف في التاريخ، والأدب وتاريخه، والأخبار والنوادر، والملح، والرواية عددًا ضخمًا من الكتب الأدبية، عدد له "ابن النديم" حوالي ستين كتابًا يقع بعضها في بضعة عشر جزءًا، وعدد له "ياقوت" واحدًا وخمسين كتابًا، هذا ويمكن تصنيف كتب "ابن طيفور" في نطاق الموضوعات الآتية:

أولًا: موضوعات أدبية عامة، وتاريخ أدب، وأخبار أدبية ونقد، ويمكن أن يندرج تحتها كتبه التالية:كتاب المنثور والمنظوم أربعة عشر جزءًا بقي منه جزآن: أحدهما الحادي عشر، طبعت قطعة منه باسم "بلاغات النساء" والآخر الثاني عشر مخطوط، كتاب سرقات الشعراء، كتاب المؤلفين، كتاب المختلف من المؤتلف، كتاب الموشىٰ، كتاب مفاخرة الورد والنرجس، الحيل، كتاب الطرد، كتاب سرقات البحتري من أبي تمام، كتاب رسالة إبراهيم بن المدبر.

ثانيًا: موضوعات الشعر والشعراء حيث قدم مختارات لكل شاعر جيد: كتاب أسماء الشعراء الأوائل،كتاب ألقاب الشعراء، كتاب من عرف بالكنىٰ

(١) سير أعلام النبلاء. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . تح:صالح السمر، أشرف علىٰ التحقيق:شعيب الأرنؤوط، ١٢/ ٤٣، مؤسسة الرسالة١٤١٨-١٩٩٦م.

ومن عرف بالاسم،كتاب من أنشد شعرًا وأجيب بكلام، كتاب مقاتل الشعراء، كتاب الجامع في الشعراء وأخبارهم، كتاب اختيار أشعار الشعراء، كتاب اختيار شعر بكر بن النطاح،كتاب اختيار شعر العتابي،كتاب اختيار شعر منصور النمري، كتاب اختيار شعر أبي العتاهية، كتاب اختيار شعر بشار،كتاب أخبار مروان وآل مروان واختيار أشعارهم،كتاب أخبار ابن ميادة، كتاب أخبار ابن هرمة ومختار من شعره، كتاب أخبار ابن الدمينة،كتاب أخبار وشعر عبد الله بن قيس الرقيات.

ثالثًا: كتب في التاريخ والسياسة وهي:كتاب بغداد طُبع منه المجلد السادس، وقام بتحقيقه المستشرق السويسري كلر keller، يتضمن سيرة "المأمون" ويؤرخ للحوادث التاريخية ما بين عامي ٢٠٤ و ٢١٨ هجرية، كتاب المعروفين من الأنبياء،كتاب الحجّاب،كتاب مرتبة هرمز بن كسرىٰ بن أنوشروان، كتاب خبر الملك العالي في تدبير المملكة والسياسة، كتاب جمهرة بني هاشم،كتاب مقاتل الفرسان.

رابعًا: كتب موضوعاتها أخلاقية وهي:كتاب الرسالة: في النهي عن الشهوات، كتاب فضل العرب علىٰ العجم، كتاب الملك البابلي والملك المصري الباغيين، والملك الحكيم الرومي، كتاب المصلح والوزير المعين، كتاب الهدايا، كتاب المعتذرين، كتاب المؤنس، كتاب أخبار المتظرفات.

خامسًا: كتاب واحد في اللغة هو كتاب المشتق.

سادسًا: كتب تشمل موضوعات عامة وهي:كتاب لسان العيون، كتاب الغلة والغليل، كتاب الرسالة إلىٰ علي بن يحيىٰ، كتاب الجواهر.

منهج المؤلف:

قدم مادته في منهج علمي، وتبويب ظاهر الاتساق والتناسب، ففي أول الكتاب اتبع منهجا منظما، ثم استطرد وأقحم أخبارا مختلفة بين الحين والآخر.

موضوعات الكتاب:

عنون الناشر للكتاب بعنوان طويل دال علىٰ محتويات الكتاب"بلاغات النساء وطرائف كلامهن، وملح نوادرهن، وأخبار ذوات الرأي منهن، وأشعارهن في الجاهلية والإسلام" ينم عن التخصصية، فجل نصوص الكتاب عنيت بأدب النساء الشعري والنثري في زمن مبكر من عهود التأليف قلّ أن يوجد فيه مؤلَّف يخص أدب النساء بالجمع، ويمكن حصر الموضوعات التي وردت في الكتاب كالتالي:

أولا: خطب بعض أمهات المؤمنين مثل السيدة عائشة وسودة وحفصة ـ رَضيَ اللهُ عنهن ـ، ونماذج من بلاغة نساء آل بيت الرسول ـ ﷺ ـ في مقدمتهن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ ﷺ ـ، والسيدتان زينب وأم كلثوم ابنتا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، ثم نماذج أخرىٰ لبلاغة شهيرات النساء اللائي ناصرن عليًّا بن أبي طالب بخطبهن وبلاغتهن، فنقل عنهن خطبا قلنها في حضرة"معاوية بن أبي طالب" حين أوفدن عليه، وهو أمير للمؤمنين، يبدين فيها جرأة غير معهودة، واعتداد بالرأي، وثقة بالنفس، وفصاحة، ولَسَن، غير مباليات ما يكون من أمير المؤمنين مثل: سودة بنت عمارة، والزرقاء بنت عدي، وبكارة الهلالية، وأم الخير بنت الحريشي و وآمنة بنت

الشريد، وعكرشة بنت الأطش، والدارمية الحجونية، وأم البراء بنت صفوان ..وأخريات.

ثانيًا: إيراد كلام لنساء متفرقات مثل: هجاء "الجمانة بنت المهاجر" لـ"عبد الله بن الزبير" ومواجهتها إياه بدون خوف أو تكذيب ما قالته، بل تلطفت بأسلوب الحكيم، ووصية ولادة العبدية، ووصف أم معبد لرسول الله ﷺوكلام امرأة أبي الأسود وشكوتها إلىٰ معاوية، هؤلاء النسوة يمثلن نماذج للنساء المفوهات البليغات اللائي يتميزن بقوة العارضة واللسن وسرعة البديهة، كما تميزت بلاغة المرأة الجاهلية بإيراد الألفاظ القوية المعجمية، والاستشهاد بالشعر مثل: الحوار الذي جرىٰ بين "جمعة" و"هند" ابنتي الخس والقلمس الكناني في سوق "عكاظ".

ثالثًا: بلاغات النساء العربيات في وصف حياتهن الاجتماعية ومنازعات الأزواج في المدح والذم وصفاتهنَّ لهم في منثور الكلام ومنظومه، ومنازعات الضرائر، ووصايا الأمهات لبناتهن عند الزواج، ومشاحنات الفتيات وزوجات أبيهن شعرًا ونثرًا مثل: الحوار الذي جرىٰ بين بنت روح بن زنباع وزوجها النعمان بن بشير، وآخر جرىٰ بين فتاة وأمها في شأن اختيار الزوج.

رابعًا: أخبار ذوات الرأي والظرف من النساء، وسردأقوال جرت علىٰ ألسنتهن، ونوادر حدثت لهن روينها في ظرف وفكاهة، مثل:حديث عاتكة بنت عبد الله بن مطيع مع زوجها الوليد بن عبد الملك، وعائشة بنت عثمان حين خطبها سعيد بن العاص، والحجاج وهند بنت أسماء بن خارجة، وفي هذه النوادر يجمع المؤلف بين أخبار القيان والإماء ونوادرهن، وإلىٰ نوادر العربية المسلمة نوادر العربية الجاهلية.

خامسًا: أفرد المؤلف قسمًا من كتابه لأشعار النساء العربيات في الجاهلية والإسلام، وعصر بني أمية ومستهل عصر العباسيين، ولم ينس أشعار الإماء أيضًا، فجاء بنصوص طريفة لليلىٰ الأخيلية وشعرها في توبة بن الحمير العقيلي، والخنساء وأخبارها ومراثيها في أخيها صخر، فضلا عن نماذج عديدة لشاعرات عديدات ينتسبن إلىٰ مختلف القبائل، مثل جنوب الهذلية، والفارعة بنت معاوية القشيرية، وفاطمة بنت مر الخثعمية التي أرادت الزواج من عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، والجوزاء بنت عروة البصري، ومارية بنت الديان. ومن الطريف أن كل نص شعري جاء به المؤلف إلىٰ هذا الباب ربطه بحادث تاريخي، أو خبر اجتماعي، أو طرفة تسري عن الأديب وتفيد المتأدب.

هذا وفي الكتاب بعض الأساطير الطريفة مثل قصة ملكة سبأ وحوارها مع نساء متزوجات زين لها الزواج فعزمت علىٰ الزواج علىٰ مسئوليتهن، إن أصابت خيرًا من خلاله نالهن منها خيرًا، وإن لم تحمد نتيجة الزواج أصابتهن بضر شديد.

والكتاب إلىٰ جانب ذلك مليء بالكنوز من شعر الترقيص الذي كان يجري علىٰ لسان الرجل العربي، وهو يداعب وليده، والمرأة العربية وهي تلاعب صغيرها. وكثيرًا ما كان يستعمل هذا اللون من الشعر كحوار غير مباشر بين الزوج وزوجه، وهو معين ثرّ للنوادر العربية والملح الأدبية شعرًا ونثرًا.

الفصل الأول
مباحث علم المعاني

أولا: التكرار:

إن التكرار لنمط معين من تركيب الجمل، أو تكرار البُنىٰ الصرفية خاصية امتازت بها بلاغات النساء، يلجأن إليها لإفراغ الشحنات العاطفية الداخلية تجاه موضوع ما، والمعاني التي تحمل هذه الشحنات كثيرة ومتشعبة، وتكون هذه الشحنات أكثر اندفاعية وتدفقا في رثاء النساء لآبائهن، فقد فقدن السند الداعم، والحصن الحصين الذي يلجأن إليه في الملمات، وكذلك كانت عاطفة النساء تجاه سيدنا "علي" ـ كرم الله وجهه ـ فقد رأين فيه صفة الإمام العادل الذي ينصفهن، كما وجدن فيه قرابة بيت النبوة، وبصفة أكثر شمولا فإن النساء تميل إلىٰ إفراغ انفعالاتهن تجاه موضوع ما أو حادثة بعينها بجيش من الجمل المتتابعة التي يتكرر فيها الفعل لتصور الحدث وتشعر السامع أن الحادثة ما زالت موجودة تحدث علىٰ مسرح أحداثها وأن الانفعال بها مستمر، ومن ثمّ برز التكرار وأصبح خصيصة تميز كلامهن والأمثلة خير شاهد علىٰ ذلك، ودراسة التكرار هنا تشمل دراسة التوازيات التركيبية التي تتكرر بشكل منتظم مقسمة الجمل إلىٰ وحدات متساوية مما له أثر بالغ في تشكيل الانتظام والتردد الذين لهما دور بالغ في حدوث الإيقاع.

وهذا نص مما تمثلت به السيدة "عائشة" رضي الله عنها بعد وفاة أبيها رضي الله عنه، فقد قرع أذنها أن قوما نالوا منه، فعذلت، وقرّعت، وأوجعت بكلامها، تقول: "وبغىٰ الغوائل، وظن رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزتها، ولات حين الذي يرجون، وأنىٰ والصديق بين أظهرهم؟ فقام حاسرا مشمرا، قد رفع حاشيتيه،

وجمع قطريه، فرد نشر الدين علىٰ غره، ولمّ شعثه بطيه، وأقام أوده بثقافه، فابذقر النفاق بوطأته، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق علىٰ أهله، وأقر الرؤوس علىٰ كواهلها، وحقن الدماء في أهبها، وحضرته منيته نضر الله وجهه، فسد ثلمته بشقيقه في المرحمة، ونظيره في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب ـ لله در أم حفلت له ودرت عليه، لقد أوحدت، ففنخ الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبعج الأرض وبخعها، ففاءت أكلها، ولفظت خبيئها، ترأمه ويصد عنها، وتصدىٰ له ويأباها"[1] .

فسردت ما لأبيها من فضل علىٰ الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسولﷺ، فأسعفها التكرار بتعديد مآثره وفضله في توحيد صفوف المسلمين، ومحاربة الخارج علىٰ نهج الدين، وكان التكرار متوازيا، يعتمد علىٰ الثنائيات، فيتكرر النمط التركيبي مرتين (قد رفع حاشيتيه، وجمع قطريه)، ثم تنتقل إلىٰ غيره لتهيئ الذهن إلىٰ تقبل تتابع جديد من النمط (وأقر الرؤوس علىٰ كواهلها، وحقن الدماء في أهبها)، (ففنخ الكفرة وديخها، وبعج الأرض وبخعها)، (ففاءت أكلها، ولفظت خبيئها)، (ترأمه ويصد عنها، وتصدىٰ له ويأباها)، إلىٰ جانب تكرار الأفعال، فالسنتان اللتان قضاهما الصديق بعد وفاة الرسولﷺ كانتا عملا شاقا، وجهدا مضنيا لتوحيد كلمة المسلمين، ورد الفتنة، فتموجت بالحركة والفعل والحرب، وهذا يؤثر ترديد الأفعال الماضية المشيرة إلىٰ تحقق الفعل وانتهائه في كل قرينة (وبغىٰ، وظن، أكثبت،

(١)- بلاغات النساء. أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني، ص٣٩، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الفضيلة.د.ت.

فقام، رفع ، وجمع، فرد، ولمّ، وأقام، فابذقر[1]، وانتاش، فنعشه، أراح، وأقرّ، وحقن، وحضرته، فسد، ففنخ، ديخها، وشرد، وبعج، وبخعها، ففاءت، ولفظت)، فلم تكن خلافة الصديق أوامرَ تُلقىٰ مجردة عن العمل، بل كانت أفعالا حدثت وأُنجزت، وكان تكرير الفعل المضارع (ترأمه، ويصد، وتصدىٰ، ويأباها) لتصوير حال تجدد مراودة الدنيا لأبي بكرﷺ وهو يدفعها ويمتنع منها، والتكرار للأفعال بهذا التواتر المنتظم يغلب عليه الطابع الانفعالي، فالنساء يملن إلىٰ إفراغ الشحنات التأثيرية التي ينفعلن بها إزاء حدث معين، وكان الحدث هنا رثاءً لأب، فالعاطفة صادقة، والشعور صادق أيضا، وإخراج زفرات الحزن واللوعة تمثلت في تعداد مآثر الصّدّيق، ولم تلجأ السيدة "عائشة" إلىٰ هذه البنية التكرارية الإيقاعية لتجبر ما افتقده أسلوبها من مجاز وصور مبتكرة، ففي دراسة الاستعارة في كلامها فيما سيأتي من البحث وجد أن كل كلماتها محملة بالصور المجازية التي تحتاج إلىٰ كشف وتنقيب لتحديد عناصرها وتركيبها، كما كانت ألفاظها فصيحة تحتاج إلىٰ تنقيب وكشف عن معناها كما ورد في هذه الفقرة من ألفاظ (غره، بثقافه، ابذقر، ففنخ، وديخها، وبعج، وبخعها)[2]، وكانت مُصيبة في وصف أبيها بصفات مدح الرجال من العقل والشجاعة والعدل والعفة، وما يتفرع عن

(١) هكذا وردت في النص، وورت في لسان العرب: (بذعر)، وابذعر الناس: تفرقوا، كما وردت(بذقر): ابذقر القوم وابذعروا: تفرقوا. مادة (بذعر)، وذكر صاحب اللسان أن أصل المادة: (مذقر): أي: تقطع وتفلق.

(٢) – غره : طيّه ، بثقافه : حديدة يقوّم بها الشيء المعوّج، ابذقر: فرق وبدد ، ففنخ: قهر، وديخها: أذلها ، وبعج: شق ، وبخعها: أذل.

ذلك من الفضائل النفسية كالسياسة والكفاءة والحلم والقناعة وطهارة الإزار[1].

وفي هذه التفة من كلام للسيدة "عائشة" رضي الله عنها تذكر أباها، تقول: "إن أبي كان غِمرا، شاهده غِمرا، غيبه غمرا صمته إلا عن مفروض ذلله عند الحق، .... طيار بفناء المعضلة، بطئ عن مماراة الجليس، منشئ لمحاسن قومه، موقور السمع عن الأذاة"[2] تكرر لفظة (غمرا) ثلاث مرات يطبع اللفظ بحروفه وجرسه في أذن السامع، ويقرره في نفسه؛ لتوكيد سعة خلق "الصديق" وسخاء نفسه في جميع أحواله مبالغة في مدحه، فالأصوات المكونة للمفردة (غمرا) جميعها مجهور، فناسب هذا أن يكون الغمر معلوما ظاهرا للجميع حال حضوره وغيابه، والحروف المجهورة غير مجهدة للتنفس، كما أن مجاورة (الغين) لـ (الميم) و(الراء) تستسيغه الآذان ولا يتعسر النطق به[3] فينطلق هواء الرئتين بسهولة ليشعر المتكلم بالراحة والبسط، وهذا مناسب للوصف بـ"غمرا" فالغمر: واسع الخلق، السخي[4]، وقد كان الصديق رابط الجأش رزينا جوادا، ثم تتكرر أوصاف المبالغة مرتين في أول كل جملة (طيار، بطئ)، كما تكرر اسم المفعول مرتين أيضا (منشئ، موقور) وهذا التكرار رغبة في إثبات هذه الصفات للصديق في ذهن السامع

(١) - ينظرنقد الشعر.قدامة بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، ص٩٦(نعت المديح)، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(٢)- بلاغات النساء ص ٤٠

(٣) - موسيقىٰ الشعر.د. إبراهيم أنيس، ص٢٦، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م.

(٤)- لسان العرب مادة (غمر).

وسمعه لتتقرر في نفسه ويسترجعها، ورغبة من السيدة "عائشة" رضي الله عنها في حشد جميع الصفات التي عاينتها في والدها، وتشكلت في عقلها ووجدانها علىٰ هيئة إيقاع متغير ومتبدل يمتد إلىٰ منطقة العقل والخيال والوجدان بحيث يساهم في إبراز دلالته الفكرية والانفعالية(١).

وتذكرت السيدة "عائشة" رضي الله عنها أباها يوم الحكمين فقالت: "رحمك الله يا أبتي، فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين حين وهىٰ شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه، انقبضت عما إليه أصغوا، وشمرت فيما عنه ونوا، وأصغرت من دنياك ما أعظموا، ورغبت بدينك عما أغفلوا، أطالوا عنان الأمل، واقتعدت مطي الحذر، فلم تهتضم دينك، ولم تنس غدك، ففاز عند المساهمة قدحك، وخف مما استوزروا ظهرك"(٢) ارتفاع تردد الأفعال (وهي، وتفاقم، ورجفت، انقبضت، وشمرت، وأصغرت، ورغبت، واقتعدت، فلم تهتضم، ولم تنس، ففاز، وخف) أمر تفرضه طبيعة المقام، فسياق مدح المرثي مقام تعديد للمفاخر والأفعال المحمودة التي يبعث عليها الصدق، وحمل الأمانة، والشجاعة، والعقل، وسياق الرثاء مقام احتراق القلب واليأس وانعدام الأمل؛ لتصدع الخلافة الإسلامية، وتفشي القتل؛ ولذلك لجأت السيدة "عائشة" رضي الله عنها إلىٰ التكرار لتنفث زفرات الحزن علىٰ فقد والدها، والتحسر علىٰ ما آلت إليه أوضاع المسلمين، فأفصحت الأفعال الماضية عن جوانب حية في سمات الصِّدِّيق، وهي إقامة الدين وما يتبعه من

(١) – ينظر عناصر البلاغة الأدبية.د. نبيل راغب، ص١٠٨، مكتبة الأسرة٢٠٠٣م.

(٢)– بلاغات النساء ص ٥١

انقباض عن الباطل، وعدم الركون إلىٰ الدنيا، وتوخي الحذر منها، وتخللت الأفعال المضارعة (فلم تهتضم، ولم تنس) الأحداث الماضية وعطفت عليها بالفاء؛ لأنها في المعنىٰ ماضية[1]، فالمعنىٰ: فما اهتضمت، وما نسيت، إلا أن الغرض في إخراجه علىٰ لفظ الحال، أن تحكي الحال والهيئة، فجسد الحذر وأصبح جوادا اتخذه الصديق وبذل الجهد لحبسه علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، وكان الابتداء بالفعل في أول كل جملة معوانا علىٰ تنسيق الإيقاع وحسنه "يحسن التكرير في الطرفين لا في الوسط"[2].

وعندما قُتل "الحسين" خطبت أخته السيدة"أم كلثوم" في أهل الكوفة الذين خذلوه وتسببوا في قتله قائلة: " أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم ؟ وأي دم له سفكتم ؟"[3] انطلقت زفرات الحزن والأسىٰ علىٰ فراق الأخ، فتكرر صوت (الهمزة) الانفجاري أربع مرات مُفتتحًا به أسلوب الاستفهام (أتدرون) مفجرا ما بداخل السيدة من غضب وحنق؛ لتنبههم وتوقظهم من سبات الغفلة، وكأنها تتجاهل ما تعرفه لشدة الوله والحزن، وتفظيع الجرم، وتضخيم الذنب، وتهويل المصيبة، وتشهير بالغفلة، مستهدفة بلوغ العمق الداخلي للذات في المفردات (كبد ودم)، فـ(الكبد) كناية عن حب الرسول ﷺ للحسن وأخيه فكان يعدهما ريحانتيه، و(الدم) كناية عن القرابة، فالكبد عضو يتمم تكوين الدم، وهو عضو رئيس

(١) – ينظر دلائل الإعجاز ص٢٠٦

(٢) – المثل السائر ٣/ ٢١

(٣) – بلاغات النساء ص ٧٦

في قوة تغذيته، والأوردة توزع الدم علىٰ أعضاء البدن(١)، فإذا شُق الكبد وقُطع تصبب الدم وفسد الكبد وبطل عمله، إبرازا لعلاقة القرب ووشائج الألفىٰ والمحبة بين رسول الله وحفدته، وتكرار (أي) الاستفهامية ثلاث مرات مع تماثل الفاصلة (فريتم، سفكتم) يؤكد شعور الحيرة والألم وكأنها تستنكر أن يحدث القتل وسفك الدم في حفدة الرسولﷺ؛ ولذلك استفهمت بالهمزة عن الفعل (أتدرون)؛ للشك في استواء عقل أهل الكوفة، واستقامة إدراكهم ووعيهم بالأحداث، ولا يراد بها جوابهم.

ومن قول أم المؤمنين "حفصة"رضي الله عنها تصف صدود أبيها عن الدنيا رغم تعرضها له وتبذلها، تقول: " قاليا للدنيا إذ عرفها لافظا لها إذ عجمها، وشانيا لها إذ سبرها، تخطبه ويقلاها، وتريده ويأباها، لا تطلب سواه بعلا، ولا تبغي سواه نحلا، أخبرها إن التي يخطب أرغد منها عيشا، وأنضر منها حبورا(٢)، وأدوم منها سرورا، وأبقىٰ منها خلودا، وأطول أياما، وأغدق منها أرضا، وأنعت منها جمالا، وأتم منها بلهنية(٣)، وأعذب منها رفهنية(٤) "(٥) تكررت صيغة (أفعل) التفضيل تسع مرات، لتأكيد وتقرير أفضلية الآخرة علىٰ الدنيا،

---

(١) – الشفاء. الطبيعيات. ابن سينا، مراجعة:د.إبراهيم مدكور، تح:د.عبد الحليم منتصر وغيره، ص ٣٠٨، ٢٨٤، ١٢، منشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي. إيران١٤٠٦هـ.

(٢) – الحبور: النعمة وسعة العيش . لسان العرب. مادة (حبر).

(٣)– البلهنية : الرخاء وسعة العيش. لسان العرب. مادة (بله).

(٤) – رفهينة: رغد الخصب ولين العيش. لسان العرب. مادة (رفه).

(٥)– بلاغات النساء ص ٨٠

وصرف العناية إليها ليثبت أمرها ويتقرر[1] مبالغة في حبها، والتشوق لمقابلتها، ولم يكن حبه لها وإيثارها مجرد انطباع لا عمق له عبرت عنه السيدة"حفصة" رضي الله عنها بقليل من العبارات، ولكنه انطباع تركز وأصبح شعورا ثابتا، إذ قصرت الجمل، وتلاحقت الأنفاس، في تردد "أفعل" التفضيل، فأبرز التكرار صراعا شديدا يعانيه "الفاروق" ناتجا عن زهده في الدنيا وإقبالها عليه، وصدوده عنها وتبرجها له، وقد أبرز الطباق بين (تخطبه ويقلاها، وتريده ويأباها) شدة هذا الصراع، ومجاهدة النفس في دفعها بكل ما يملك من قوة وإرادة؛ ولذلك جسدها واستعار لها صورة امرأة متبرجة مراوِدة (تخطبه، تريده) تحاوره وتعيد عليه العرض والطلب، وهو يصدها ويدفعها، ولكي تيأس من محاولاتها وإغراءاتها كرر علىٰ مسامعها أسلوب التفضيل (أرغد، وأنضر، وأدوم، وأبقىٰ، وأغدق، وأنعت، وأتم، وأعذب) الذي يفاضل بينها وبين الجنة؛ ليقضي للجنة بالسمو والسبق والتفوق في الراحة والنعيم والسعة، فالرغد، والنضارة، والدوام، والبقاء، والإغداق، والنعت، والتمام، والعذوبة صفات علت عن ابتداء الغاية الموجود في (مِنْها)[2]، فالزيادة في هذه الأوصاف تجاوزت نظائراها الموجودة في الدنيا ولم يعلم لها موضع انتهاء في الفضل والزيادة؛ فالجنة لم تخطر علىٰ قلب بشر.

ومن كلام "الزرقاء بنت عدي" تعين "عليًّا" علىٰ "معاوية" يوم صفين، تقول:" أيها الناس، إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن

(١) - ينظر المثل السائر ٣/ ١١

(٢) - ينظر شرح المفصل.باب (أفعل التفضيل) ٤/ ١٢٠: ١٢٨

قصد المحجة، ..... أيها الناس، إن المصباح لا يضئ في الشمس، وإن الكوكب لا يقد في القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، وإن الزف[1] لا يوازن الحجر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن استخبرنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها"[2] تكررت (إن) ست مرات للتأكيد والقطع بتفضيل "علي" علىٰ "معاوية"، والقصد إلىٰ ذلك بتكرار "إن" تكرارا منفصلا مستقلا في مطلع كل جملة، وإن عُطفت عليها الجمل الأخرىٰ، مرادا به التهكم بـ"معاوية" وعدم أحقيته للخلافة، وأن إقدامه علىٰ حرب "علي" مُدِلا بنفسه وشجاعته ظنا منه أن "عليا" لا يقوىٰ علىٰ حربه وأنه لا يستحق الخلافة وإلا بايعه، كما عرضت بشخص معاوية بضرب الأمثال والمقارنة بينه وبين "علي" علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية، فالمشبه واحد، والمشبه به مركب متعدد، شبهت الحال الحاصل من ربو "علي" علىٰ "معاوية" في الفضل واستحقاقه خلافة المسلمين لقرابته من رسول الله ﷺ ومصاهرته وتبشيره بالجنة، بحال المصباح الذي خبا ضوؤه بسبب سطوع ضوء آخر حاجب أقوىٰ منه هو ضوء الشمس، والحال الحاصل من تغلب ضوء القمر وسطوعه علىٰ جميع الكواكب السيارة، والحال الحاصل من سبق الفرس وتفوقه علىٰ البغل في العدو، والحال الحاصل من تطاير صغار الريش وعدم بقائه عند زنته مع الحجر، والحال الحاصل من مقابلة القوة بقوة أشد منها، فتكرار الصور يتضمن مبالغة في

(١)- الزف: الخفيف، وصغار ريش النعام والطائر. لسان العرب. مادة (زفف).

(٢)- بلاغات النساء ص ٩١

الحث والتهييج والحماسة والثبات علىٰ الجهاد مع من يستحق، وتوكيد الحال المشبه به توكيد للحال المشبه، وتأكيد لعدم استواء الطرفين؛ ولذلك كان الاتكاء علىٰ ترديد الجمل الاسمية مؤكدة بـ"إن" مع تكرار"لا" النافية إيحاء بثبات الأوصاف والأمثال التي سردتها مع عدم احتمالية تغييرها مهما حدثت أحداث، وجدت ظروف، وبرغم كون المقام مقام حرب.

ولجأت امرأة أبي الأسود الدؤلي إلىٰ "معاوية" تستعينه، وكان زوجها حاضرا بالمجلس، فقالت: " السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، إن الله جعلك خليفة في البلاد، ورقيبا علىٰ العباد، يستسقىٰ بك المطر، ويستثبت بك الشجر، وتؤلف بك الأهواء، ويأمن بك الخائف، ويردع بك الجانف، فأنت الخليفة المصطفىٰ والإمام المرتضىٰ، فأسأل الله لك النعمة في غير تغيير، والعافية في غير تعذير"[1] افتتحت المرأة كلامها بصيغة الخطاب الفردي متوجهة إلىٰ "معاوية" بالسلام دون غيره من جلسائه، كما أنها قطعت السلام واعترضته بـ(أمير المؤمنين) لتخصصيه بالسلام دون غيره من الحضور وتأكيد لذلك، لئلا يتوهم أنها تريد أن تسلم سلاما عاما علىٰ الجلساء، وهذا ينم عن قوة نَفْسها وجرأتها، فذهبت تشكو زوجها بحضرته، ثم افتتحت كلامها بالتوكيد مع أنها لو ألقته خاليا من التوكيد لم يلق إنكارا أو شكا من المخاطب؛ لأن وجهاء القوم مجتمعون بحضرة الخليفة، فالتوكيد ليس خروجا بالخبر علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، فـ"قد يكون الخطاب ابتدائيا وطلبيا وإنكاريا بأن تقول: لمن لا يستحضر قيام

(١) -السابق ص١١٥

زيد ويتردد في قيام عمرو وينكر قيام بكر: زيد وعمرو وبكر قائمون فماذا تصنع ولم يبق إلا التغليب والذي يظهر أن تعامل الجميع معاملة الإنكاري، فإن تأكيد الابتدائي لا بدع فيه بخلاف ترك تأكيد الإنكاري فإنه لا يجوز"[1]، فالتأكيد تذكير بنعمة الله ﷻ وإثارة ولفت لأذهان السامعين، وفي إسناد الجعل لاسم الجلالة تعظيم وتشريف لـ"معاوية" ــ لأن توليه الخلافة كان بعد سفك دماء آل بيت النبوة ـ كي يقبل عليها، ويهتم بشأنها، ثم أمطرته بوابل من جمل المدح الفعلية القصيرة المتتابعة التي دلت علىٰ طول النفس، والإلحاح علىٰ إبراز كل الصفات المحمودة التي يحب أن يتسم بها العربي، ويجب أن تكون في خليفة المسلمين فقولها:(يستسقىٰ بك المطر) كناية عن صلاحه وقبول دعوته، و(يستثبت بك الشجر) كناية عن الأمن والاستقرار، (وتؤلف بك الأهواء) كناية عن حلمه، (ويأمن بك الخائف) كناية عن عدله، و(يردع بك الجانف) كناية عن قوته، وكررت (بك) خمس مرات متقدمة علىٰ المسند إليه لتقرير المعنىٰ المراد إثباته[2]، فهي تستنجد بالخليفة، وزوجها الذي تستنجد منه بالخليفة من أكبر الناس عنده وأقربهم مجلسا منه، فيكون الخليفة واقعا تحت تأثير عوامل الإجلال والإكبار لأبي الأسود لعلمه وعقله، فلابد أن يكون مطلع كلامها مدحا يقرر في نفس الممدوح والسامعين ما عند الممدوح من صفات تتوسل بها إليه، فتكون الاستجابة أسرع من الممدوح،

(١) – مواهب الفتاح ٢/ ٢٢٤

(٢) – المثل السائر٣/ ١٠

والتكرير تقرير وتقوية لهذه الصفات في النفوس، وتعريض بزوجها، فيتكرر في نفسه هذه الصفات التي وصف بها الممدوح ويخجل من تقصيره.

ومن أمثلة شكوىٰ الأب: قال الأصمعي: كتبت امرأة إلىٰ أبيها وكان زوّجها بغير إذنها [1]:

أيا أبتي عَنَّيْتَنِي وابْتَلَيْتَنِي وصيَّرتَ نَفْسِي فِي يَدَي مَنْ يُهِينُها

أيا أبتي لولا التحرج قد دعا عليك مجابا دعوة تستدينها

تتحسر المرأة علىٰ نفسها وتلوم أبيها علىٰ قهرها وإذلالها بتزويجها ممن لا تريد، فافتتحت بأسلوب النداء (أيا أبتي) مكررا مرتين شاكية لائمة علىٰ ما كان من التقصير في حقها، ومنعها حق الاختيار، وهو نداء مؤثر إذ وضع في المقطع الأول "وذلك لأنه يلخص لنا الكيف الشعوري المركز الذي يريد به الشاعر أن يستهل به هذه المأساة العاطفية"[2]، وفي النداء بـ"أبتي" وتكراره يعكس بشكل خاص علاقة الابنة بأبيها بما تتضمنه من حب وإعزاز، ولكنها شعرت بالاغتراب فجأة للانفصال عنه انفصالا جبريا مُذِلا، وُئد معها معنىٰ الأبوة والرحمة، ولكن اغترابها ظل في دائرة محدودة، إذ حافظت علىٰ نوع من الانتماء بنداء أبيها بـ"أبتي"، وعتابه علىٰ ما تورط فيه، ثم أتبعت بالجمل(عَنَّيْتَنِي، وابْتَلَيْتَنِي، وصيَّرتَ) لإبراز الألم النفسي الذي يعتصرها، فاتكأت علىٰ تكرار ضمير التكلم (الياء) الفردي، ولم تلجأ إلىٰ التعميم بل خصصت نفسها وأبرزتها مكررة ضميرها مع إضافة أفعال ماضية

(١) – بلاغات النساء ص ٢٨٩

(٢) – قراءة قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي. د.محمود الربيعي، ص٧٨، حوليات كلية دار العلوم١٩٧٢-١٩٧٣م.

متغايرة المعني متحققة الحدوث، وفي إضمار المُعنَّىٰ به والمبتلَىٰ إبهام لأنواع وألوان الأذىٰ التي استأثرت به من عناء وبلاء وتصيير النفس في يد من يهين، فالمرأة لا تكره أباها ولكنها كتبت إليه لتخفف عن نفسها ما تشعر به، وتشعره بما كان منه في حقها، ومع ذلك أبت بنوتها أن تدعو عليه بما يسوء.

ثانيا: أسلوب الحكيم:

مما امتازت به بعض النساء سرعة البديهة وإلجام الخصم وإسكاته في جرأة غير مألوفة اعتدادا بالنفس وثقة بها وإلزاما بالحجة وتلقيا للمخاطب بغير ما يترقبه، وقد ترددت أخبار كثيرة تفصح عن ما تتمتع به المرأة العربية من ذكاء وقاد، وخاطر يقظ، وبلاغة عالية دالة علىٰ عقولهن، فجماع البلاغة عند بعض أهل الهند:" البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"(١)، ورغم أن أجوبة النساء وردودهن كانت سريعة مفترعة، فلم يكن قصيرات الرأي، مهتزات الجَنان في مواقف المواجهة والمشافهة التي تتلعثم فيها بعض النساء عادة وجبلة، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة متعددة يقول المدائني: "قال رجل من كلب لامرأته لما دخل بها: ما أهزلك! قالت هزالي أولجني بيتك"(٢) فالرجل يتعجب من هزال امرأته لامزا لها بأسلوب تعريضي يهجو من خلاله أهلها ويعرض بفقرهم، فأدركت بفطنتها مرمىٰ كلامه وردت لمزه عليه، وجوابها محتمل أمرين:

أولهما: لمز الزوج بالبخل، وعدم الإنفاق.

---

(١)- البيان والتبيين ١/ ٧٧

(٢) - بلاغات النساء ص ٢٦٤

ثانيهما: أنه فقير مدقع، قصير القامة، فبيته صغير وبابه أصغر، فلذلك اختار هذه المرأة دون سواها.

ومما أبرز قوة مُنَّة المرأة، وسرعة بديهتها، وجرأتها في الحق والذب عن نفسها ردّ "بثينة" علىٰ "عبد الملك بن مروان ": "عن عجلان مولىٰ عباد قال: كنت عند عبد الملك بن مروان فأتاه حاجبه فقال: يا أمير المؤمنين هذه بثينة بالباب، قال: بثينة جميل؟ قال: نعم قال: أدخلها، فدخلت فإذا امرأة طويلة، فعلم أنها قد كانت جميلة، فقال عبد الملك: ويحك يا بثينة، ما رجا فيك جميل حين قال فيك ما قال؟ قالت: الذي رجت منك الأمة حين ولتَّك أمورها، قال فما رد عليها عبد الملك كلمة"[1] غالطت "بثينة" "عبد الملك" حينما صرفته عما يسأل عنه، وهو جمال الهيئة الحسي، ونبهته إلىٰ ما هو أولىٰ وأحرىٰ بالسؤال عنه وهو الصفات النفسية والخلقية التي تتمتع بها.

ومثلما كانت الحرائر بليغات تمتعت الجواري أيضا بهذه الصفة "قال المدائني: شتم ابن للأحنف بن قيس زبراء جارية الأحنف، فقال لها: يا زانية، فقالت: والله لو كنت زانية لأتيت أباك بابن مثلك" لم تغضب الجارية، وتثور ثائرتها بل غالطت الابن وصرفته إلىٰ ما ينبغي وما يجب أن يكون، وهو أنها لو تحقق زناها لأنجبت ابنا جهولا شتاما مثلك، وأن من كان مثلك في الحال والصفة، كان كذلك.

ومما غالطت المرأة الرجل قول المدائني: " مرت امرأة منخرقة الخف برجل فأراد أن يمازحها فقال: يا امرأة خفك يضحك، فقالت: إذا رأىٰ

(١) - السابق ص ٢٦٤

كشخانا[1] مثلك لم يملك نفسه ضحكا"[2] فهي لم تقصد بـ"مثلك" إنسانا سوىٰ الرجل المتكلم، ولكنها صرفت انتباهه إلىٰ ما ينبغي أن يكون، وهو غض البصر وعدم التعرض للنساء.

قال المدائني: "أشرفت امرأة لروح بن زنباع يوما تنظر إلىٰ وفد من جذام قدموا علىٰ روح فزجرها روح فقالت له: والله إني لأبغض الحلال من جذام فما حاجتي إلىٰ الحرام فيهم؟"[3] أبرز الرد مقدار العلاقة بين "روح" وزوجه، فانحرفت عن المألوف، وغالطته في جرأة وثقة، مؤكدة ومقررة ردها بأسلوب القسم و"إن" لتنزيله منزلة المنكر، فهو يزجرها بسبب علاقة الزوجية القائمة بينهما، وما ينبني عليها من المودة والغيرة، ولكنها خالفت توقعه بأن أظهرت له كرهها له لكونه من نفس القبيلة (جذام)، وكان يمكنها أن تتوارىٰ خجلة مما بدر منها، ساترة لحقيقة شعورها من باب الكذب المحمود مع الزوج، ولكن لسانها وضح وفسر ما انبهم عليه من مجمل سرها، دون خوف من أذىٰ أو تنكيل.

ومن الجوابات المفحمة رد "أم البهاء" علىٰ "عبد الملك بن مروان: "قال المدائني: تزوج عبد الملك بن مروان أم البهاء بنت عبد الله بن جعفر فقالت له يوما لو استكت قال: أما منك فأستاك، فطلقها، فتزوجت علي بن

(١) – الكَشْخان: الدَّيُّوث وهو دخيل في كلام العرب، والكشخنة مولَّدة ليست عربية. لسان العرب.مادة (كشخ).

(٢)– بلاغات النساء ص ٢٦٤

(٣) السابق ص ٢٦٥

عبد الله بن عباس، وكان أقرع، فكانت القلنسوة لا تفارقه، فوجه عبد الملك جارية وقال لها: اكشفي رأسه بين يديها، ففعلت الجارية ذلك، فقالت: قولي له: هاشمي أصلع أحبّ إليّ من أموي أبخر فأبلغته، فقال: ويلي عليها لو علمت لم أطلقها"[1] تتمحور الواقعة هنا حول حرف الشرط "لو" الذي يُستعمل في التمني، فليس الغرض من قول "أم البهاء" : "لو استكت" طلب التسوك؛ لأنها لا تقدر علىٰ أمر أمير المؤمنين "عبد الملك" ولا ينبغي أن تفعل ذلك، فكلامها يُحمل علىٰ التمني دون الترجي؛ لأن التمني شيء يهجس في قلبها، وما طلبته "أمُّ البهاء" – طلب التسوّك- أمرا ممكنا ولكنه لا توقع لها أو طماعية في حصوله من "عبد الملك"، فيتولد من ذلك جعله نادما علىٰ ترك التسوك، مع التوبيخ واللوم علىٰ ما كان ينبغي أن يفعله قبل أن يُطلب منه[2]؛ ولذلك عبرت بأداة الشرط"لو" وفعله (استكت) مع حذف الجواب الذي تضمن لومًا وتقصيرا وتعنيفا وتجهيلا وازدراء وكل ما يدخل تحت معنىٰ التقصير وعدم الاهتمام بالنظافة وما يتولد عنهما من معاني البُغض والقِلىٰ، فكان حذف الجواب أبلغ من إظهاره، وأوقع في نفس المخاطب والمتلقي؛ ولذلك كان رد فعل "عبد الملك" عنيفا مغالطا إياها وقلب الذم عليها بقوله: "أمّا منكِ فأستاك"، أي: إذا كان التسوك بسببك فأستاك، ويتمركز الحدث في هذا الخبر علىٰ قول "أم البهاء": " قولي له: هاشمي أصلع أحبّ إليّ من أموي أبخر" فقد طوت هذه الإجابة استنكار ولوم

(١)- بلاغات النساء ص ٢٦٦

(٢) - ينظر باب التمني في المطول ص ٢٢٥

وتجهيل من "عبد الملك" وسؤال لها عن تفضيل الصلع القبيح المنظر علىٰ رائحة الفم غير المستحبة؟ فغالطته "أم البهاء" ولم تركز علىٰ العيوب الخِلقية الشكلية، ولفتت انتباهه لما هو أولىٰ بالفضل والمكانة، وهو كون "علي بن عبد الله" هاشميا سليل بيت النبوة، وهذا يكفيه فضلا وشرفا، فرد "أم البهاء" يُنبئ عن فطنتها، وجرأتها، وحُسن إدراكها لبواطن الأمور، فعندما سمع "عبد الملك" مقالتها للجارية استشاط غضبا؛ لخفاء وجه التفضيل بالنَّسب عن الشكل عليه، فلم يلتفت لهذا الأمر بل انصبّ تفكيره علىٰ تفضيل المظهر الخارجي فصرفته عن ذلك بأبلغ حجّة.

كان للشعراء معايير في اختيار محبوباتهم، فلم ينظروا إلىٰ الجمال الخارجي فقط، بل جمع اختيارهم بين جمال المظهر والمخبر، فقد كانت "عزة" محبوبة "كثير" من أجمل النساء، وآدبهن وأعقلهن[1]، ذكرت الآثار أنها وفدت علىٰ "عبد الملك" فأدخلها علىٰ حرمه ليتعلمن من أدبها، كما ذكر أنها امرأة عفيفة، وأن كُثيرا لم ير وجهها ولكنه استهيم بها قلبه لما ذكر له عنها، وكان بنو ضمرة (قبيلتها) يمنعونه أن يذكرها في شعره، ويهون عليهم نسيبه لما يعرفون من براءتها[2]، وهذا خبر ينبئ عن عقل "عزة" وأدبها "قال أبو عمرو: سمعت عمرو أبا حفص الشامي قال: دخلت عزة كثير علىٰ عبد

(١) ينظر الأغاني للأصفهاني، تح: د.إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين وأ. بكر عباس، ١٢/ ١٢٤، ١٣٥، ط١ ، دار صادر بيروت ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م

(٢) – ينظر السابق ١٢/ ١٢٤: ١٢٥

الملك فقال لها: أنت عزة كثير؟ قالت: أنا عزة بنت حمل[1]، قال: تروين قول كثير:

وَقَدْ زعمَتْ أنّي تغيَّرتُ بعدها ومَنْ ذا الذي يا عزَّ لا يتغيَّرُ
تغيَّر جِسْمِي والخليقةُ كالَّذي عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بِسرِّكِ مُخبَرُ

قالت: لا ولكني أروي وأعرف قوله:

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ مِنَ الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زلَّتِ
صَفُوحًا فما تَلْقَاكَ إِلَّا بَخِيلةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصل مَلَّتِ

قال: فأمرها تدخل علىٰ عاتكة فقالت: أخبريني عن قول كثير:

قَضَىٰ كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوفَّىٰ غريمَهُ وعَزة مَمْطُولٌ مُعَنًّىٰ غريمُها

ما هذا الدين الذي كنت وعدته؟ قالت: كنت وعدته قبلة فلم أف له بها، قالت: أنجزيها له وعلي إثمها"[2]

ردت "عزة" علىٰ "عبد الملك" نسبته إياها لـ"كثير" مغالطة له، صارفة انتباهه إلىٰ أن الأولىٰ والأجدر بمَنْ كان في منزلته ومكانته أن يدعوها لأبيها

---

(١) بحثت كثيراعن اسمها، فالرواية التي نقلها "ابن طيفور" هنا أنها عزة بنت حمل بالحاء المهملة، وجاء في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، تح: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ٣٧/ ٣٦٢ ، دار الكتب العلمية أن اسمها: عزة بنت حُميل بن حفص من بني حاجب بن غفار، بالحاء المهملة، ويقال: عزة بنت عبدالله، وهذا موجود في كتاب الأغاني، ١٢/ ١٢٢، ١٣٥، وكذلك وردت في تاج العروس للزبيدي، تح: د.عبد العزيز مطر، ٢٨/ ٣٥٠، ط٢، مطبعة الكويت ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، وورد: عزة بنت جميل في ترجمة محقق ديوان كثير، (بالجيم المعجمة). ديوان كثير عزة.جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت. ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

(٢) - بلاغات النساء ص ٢٦٣

احتراما لكرامتها وصونا لشرفها علىٰ عادة العرب الغُيَر، ولكنه غمزها فصححت كلامه ووجهته إلىٰ الصواب وما ينبغي أن يكون؛ ولذلك لم يعقب "عبد الملك" بل تخلص بدهائه إلىٰ سؤالها عن شعر لكثير يشبب بها فيه، فصرفته إلىٰ ما يليق بحالها من كونها امرأة عفيفة مصونة بشهادة قبيلتها وشعر كثير نفسه فيها.

ومن الجوابات المسكتة جواب أم ثكلىٰ علىٰ رجل يعزيها " عن رجل من أهل المدينة قال :كنت في جنازة عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإذا امرأة تقول: واحراه عليك، فسألت عنها، فقالوا: هذه أمه(١)، فدنوت منها، فقلت: يا أم عبد الله، إن عبد الله كان بعض البشر، فقالت: إن عبد الله كان ظهرا فانكسر، وأصبح أجرا ينتظر، وإن في ثواب الله لعزاء عن القليل وجزاء علىٰ الكثير"(٢).

أراد الرجل أن يسلي الوالدة ويربط علىٰ قلبها، فقال:" إن عبد الله كان بعض البشر" وهو كناية عن الموت، فالموت نتيجة حتمية لمن كان من

(١) – أم حكيم بنت الزبير بن عبد المطلب، اختلف في اسمها، قيل: اسمها صفية،وأختها ضباعة، وقيل: إن أم حكيم كنية ضباعة.الإصابة في تمييز الصحابة. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تح: عادل أحمد وعلي معوض، ٨/ ٣٨٠، ط١، دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، وقيل: أم حكيم هي ضباعة.الجرح والتعديل. لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الرازي، ٩/ ٤٦٢، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد .الدكن.الهند١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م، ودار الكتب العلمية.

(٢) – بلاغات النساء ص ٢٥٢

جنس البشر، لا يعرف التوقف، هو عالم تضيع فيه الأسماء والصلات، وتغيب فيه الحدود المكانية والزمانية، ولذلك نجد الدفقة الشعورية عند الرجل صاعدة في أسلوب التوكيد "إن" ثم تهبط في الإخبار عنه بـ(كان بعض البشر)، فأفادت "كان" الكونية فيما مضىٰ، وانقطاعها عنه حاضرا ومستقبلا، ولم يفد خبرها (بعض البشر) شيئا؛ لأنه معلوم لدىٰ المخاطب أنه قد كان بشرا فيما مضىٰ وقت حياته، و"البشر": اسم جنس غير معروف، يعني: الخلق، يقع علىٰ الأنثىٰ والذكر، والواحد والاثنين والجمع، ولم يكن لأجزائه لفظ يخصه[1]، فلم تجد تعزية الرجل في قلب الأم الثكلىٰ قبولا، فغالطته، ودحضت مقولته، وفندت رأيها بإظهار منزلة ابنها "عبد الله" ومكانته بالنسبة لها؛ لتقنعه، فعمل جوابها عملا مزدوجا نَفْي كلامه وإثبات رأيها بجملة من الوسائل اللفظية ترمي إلىٰ تعظيم المرثي، فعبرت بالمظهر في موضع المضمر؛ لزيادة تمكين المسند إليه (عبد الله) في ذهن السامع[2]، وأعادت جوابه: (إن عبد الله كان ظهرا فانكسر) مصححة قوله بما تراه الأولىٰ والأجدر أن يوصف به الابن، وهو كونه ظهرا أمرا قديما متأصلا فيه؛ لقوته وشجاعته وعلوه، فقد كان سندا، مُعاونا، غالبا، عُدّةً إذا احتيج إليه، عاليا يُستظهَر به علىٰ الشدائد والأيام فيغلب كل صعب ويعلو عليه علىٰ سبيل المجاز بالاستعارة التصريحية الأصلية، فكما أن الظهر يدعم جسد الإنسان،

(١)- لسان العرب. مادة (بشر).

(٢) ـ الإيضاح في علوم البلاغة. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني،تح: د.عبد القادر حسين، ص١٠٢، مكتبة الآداب ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

ويربط بين أجزائه، ويحافظ علىٰ جميع أجهزته الداخلية ويحوطها، وهو نقطة ارتكاز رئيسة للتحكم في الحركة، والقدرة علىٰ الجلوس، فكذا كان الابن، ونكّرته (ظهرا) تفخيما وتعظيما وتكثيرا، وتدرجت في إظهار قيمته فانتقلت إلىٰ المجرد المستغرب الأبدع، فقالت: (وأصبح أجرا ينتظر) وهو من المجاز المرسل، والكلام ليس من التشبيه لوجود (كان وأصبح) ولكنه علىٰ وصف المسند إليه (عبد الله) بالمسند (ظهرا) و(أجرا) ،أي: الكون المتحقق ظهرا فيما مضي وانقطاعه، والانتقال والتحول إلىٰ الأجر بعد أن لم يكن كذلك، فـ"أصبح" هنا بمعنىٰ: "صار"[1] أي: صار ثوابا، علاقته: المسببية، فقد أطلقت الأجر وأرادت الثواب جزاء صبرها، لأن الصبر علىٰ فقده سبب في الأجر، والأجر متسبب عنه، لتجرّ المخاطب إلىٰ الإذعان عاطفة وعقلا، فأكدت بمؤكد واحد أولا "إن عبد الله.."؛ لتصحيح كلام الرجل وقلبه عن وجهه، وإثبات رأيها وكلامها[2]، ثم أخرجت كلامها علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، فانتقلت من التوكيد إلىٰ الإخبار المجرد عنه "وأصبح.." لتنزيل العالم بفائدة الخبر ولازمه منزلة الجاهل، فالرجل عالم بالخبر، ولكنه لما تجاهل ذلك ونزّل الابن منزلة المغمورين، خاطبته الأم مخاطبة الجاهل؛ لعدم إنزال ابنها المكانة التي يستحقها، ثم ترقت احتجاجا

(١) – يقول "ابن يعيش:" أصبح زيد فقيرا" أي: صار كذلك مع قطع النظر عن وقت مخصوص". شرح المفصل ٤/ ٣٥٦

(٢)– ينظر دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني، قرأه: محمود شاكر، باب فصل في "إن" ومواقعها، ص ٣٢٣ وما بعدها، ط٣ ، مطبعة المدني. مصر، دار المدني.جدة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

لقولها، فانتقلت إلىٰ التأكيد بمؤكدين (وإن في ثواب الله لعزاء عن القليل وجزاء علىٰ الكثير) حُذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه في مقام الرثاء والتوجع الذي يقتضي الإيجاز وحذف الفضول، فقولها:(عزاء عن القليل..) أي: الفقد القليل، وجزاء علىٰ الصبر الكثير، فالحذف يليق به؛ لقيام الدليل عليه[1]، وفي الحذف تقليل للموصوف بـ"القليل" وإبهامه، وتكثير للموصوف بـ"الكثير" وتفخيمه.

ومن الجوابات التي تدل علىٰ رجاحة الرأي وحصافة العقل رد امرأة علىٰ رجل سيتزوجها: "قال المدائني عن ابن جعدية كان في قريش رجل في خلقه سوء وفي يده سماح، وكان ذا مال، فكان لا يكاد يتزوج امرأة إلا فارقها لسوء خلقه وقلة احتمالها، فخطب امرأة من قريش جليلة القدر، وبلغها عنه سوء خلقه، فلما انقطع ما بينهما من المهر قال لها: يا هذه، إن فيّ سوء خلق يعود إلىٰ احتمال وتكرم، فإن كان بك علىّ صبر وإلا فلست أغرك مني، فقالت: إن أسوء خلقا منك لمن يحوجك إلىٰ سوء الخلق، وتزوجته فما جرىٰ بينهما كلمة حتىٰ فرق بينهما الموت"[2] تبدت سرعة البديهة، ويقظة الفؤاد في ردّ المرأة علىٰ الرجل، فهي امرأة عاقلة، وصلتها أخبار عن سوء أخلاق الرجل وعدم احتمال النساء له، ولكنها نظرت إلىٰ جانب إيجابي وهو سماحة يده، كما أنها نظرت إلىٰ جانب آخر مهم أغفلته النساء وهو الحنكة والمداراة خاصة مع الزوج، والزوج هنا أمين، بدأ حوارا مع المرأة، فناداها (يا هذه)

(١) - ينظر المثل السائر ٢/ ٣٠٠

(٢) - بلاغات النساء ص ٢٤١

لتُقبل عليه وتسأله، ولكنه عمد إلىٰ الجواب قبل أن تسأله قائلا: (إن فيّ سوء...)، وشفع الإجابة بما ينبغي أن تكون عليه المرأة فقوله: (تعود إلىٰ احتمال وتكرم) كناية عن امرأة مجربة للأمور، ليست غمرة، مطيقة للصبر لتعودها عليه، ثم شفع بـ"إن" الشرطية (فإن كان بك عليّ صبر)؛ لأنه توقع أن وجود امرأة تصبر عليه وتحتمله أمر نادر(١) قليل الوقوع إيهاما لجعل غير الحاصل في معرض الحاصل، وتعريضا بالأزواج السابقات تحذيرا مما وقع منهن من عدم الصبر لإزالة المفسدة المتوقعة، وحذف الجزاء لوجود ما يدل عليه، والتقدير: فإن كان بك علىّ صبر تكرمتِ أو تحملتِ أو صبرتِ، وإلا لم يكن بك عليّ صبر فلست أغرك منِّي، فتكرر فعل الشرط وجوابه مرتين؛ للتأكيد علىٰ وجوب وجود الصبر، فحذف الجواب من الأول وبقي شرطه، وحذف فعل الشرط من الثاني وبقي جوابه، والحذف إيجاز، خفف طول الجمل الشرطية، وربطت (الفاء) الفصيحة في قوله:(فلست) العاطفة علىٰ الجواب المحذوف بينهما، والحذف أبلغ من الذكر للإبهام، فإن النفس البشرية يعز عليها أن تطلب القبول والرضا والصبر من الطرف الآخر خاصة إذا كان شريكا في الحياة؛ ولذلك لم يصرح بالجواب كيلا يلزمها بالتحمل والصبر إشعارا منه أنها إن صبرت تفضّلت عليه وتطوّلت، وفي هذا تلويح إلىٰ أن هذا الرجل لم يكن سيئا، وإنما دفعته النساء الغريرات إلىٰ ذلك؛ لسوء تصرفهن وقلة خبرتهن الأمور؛ وقد فطنت المرأة القرشية الجليلة القدر إلىٰ هذا فغالطته ودفعت ظنه، ووجهت إلىٰ ما ينبغي أن تكون النساء عليه من

(١) – ينظر "تقييد المسند بالشرط".الإيضاح ص ١٢١

اللباقة والكياسة وحسن التصرف بقولها: (إن أسوء خلقا منك لمن يحوجك إلىٰ سوء الخلق) فدخول "إن" لترد علىٰ الرجل الظن الذي ظنه بنفسه، وتبيّن خطأه الذي توهمه فيها[1]، وأكدت كلامها بالجمع بين "إن" و"اللام"؛ لأن هناك من ينكر كلامها ويدفع صحته خاصة أن الرجل تزوج أكثر من امرأة وفارقهن سريعا.

أنبأ رد المرأة القرشية الذي تألف من جملة واحدة عن حكمتها وخبرتها الأمور، فأجابت بأسلوب الحكيم الذي نفىٰ التهمة (سوء الخلق) عن الرجل فيما مضىٰ وعن نفسها فيما يستقبل معرضة بما كان من سوء خلق السابقات، وكان ردها دستورا حفظه الرجل فعاملها بما ظهر من أدبها وحكمته، وعاملته بما عرفت عنه متجنبة ما يسوء.

ومن أجوبة النساء الجريئات الحصيفات رد حفيدة رسول ﷺ علىٰ زوجها "هشام بن عبد الملك "قال المدائني: كانت رملة بنت طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر وأمها فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب، وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر، وأمها زينب بنت علي بن أبي طالب – عليه السلام– الكبرىٰ قال أبو الفضل: هذا غلط، وأنا أحسبها زينب حفيدة رسول الله ﷺ وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ عند هشام بن عبد الملك وكانت لا تلد، فقال لها هشام يوما: أنت بغلة لا تلدين، فقالت: بلي يأبىٰ كرمي أن يدنسه لؤمك"[2]

(١) – ينظر "فصل في "إن" ومواقعها".دلائل الإعجاز ص ٣٢٧

(٢) – بلاغات النساء ص ٢٣٦

أهان الزوج زوجه متعمدا، فشبهها بالبغلة، بجامع العقم في كل، تشبيهاحسيا مؤكدا مفصلا، أخرج ما لاقوة له في الصفة إلىٰ ما له قوة فيها[1]، لذم الزوج وتحقيرها، فالبغلة لا تلد أبدا، وهذه خلقة فيها ويضرب بها المثل في العقم، ولكن الزوج هنا قد تكون لديها علة وقتية تحتاج علاجا، وقد تكون عقيما بالفعل، وهذا لا يستدعي إهانتها أبدا خاصة كونها هاشمية من بيت النبوة، وزوجها خليفة أموي، فلو كانت هذه الزوج سيئة الخلق لردت عليه بما يحقر من شأنه وهو كونه زوجا للبغلة، ولكنها صرفته بأسلوب الحكيم إلىٰ لؤم أصله وكرههم للهاشميين؛ فلذا هي لا تنجب منهم.

وعندما وفدت"أم الخير" ـ كانت من أنصار"علي"ـ كرم الله وجهه ـ علىٰ "معاوية" سلمت عليه قائلة: "السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: وعليك السلام، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم، فقالت: مه يا هذا؟ فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه"[2] فأمرته بالسكوت (مه يا هذا) صارفة انتباهه إلىٰ ما يجب وينبغي عليه أن يفعل، فمَن يأمر بإيفاد امرأة عليه من "الكوفة" لابد أنه يكون ذلك لأمر جلل؛ ولذلك بادهته وصرفت نظره إلىٰ ذلك " فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه" أي مفاجأتك لي وابتداؤك إياي باللوم والتعنيف ستجعلني أتحفظ منك ولا أفصح عما تحب معرفته.

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.الرماني ، تح: محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام، ص٨٥، ط٥، دار المعارف٢٠٠٨م.

(٢) – بلاغات النساء ص ٩٦

ثالثا: العدول عن النمطية:

- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

١-تنزيل غير المنكر منزلة المنكر:

قد يكون المخاطب عالما بالخبر، حاصلا صورته في ذهنه، غير منكر له، ولكنه يخاطب مخاطبة المنكر، وينزل منزلته، كما في توكيد الكلام بأسلوب القسم، وهو من الأساليب البلاغية التي ارتكزت عليها النساء البليغات في الاحتجاج لصحة الرأي، وتأكيد الدعوىٰ، ودفع الباطل، وإزالة شك المخاطب، في خطاباتهن السياسية الإقناعية خاصة في مقام دفاع السيدة"عائشة" عن أبيها، وفي مقام وفود النساء علىٰ "معاوية" وسؤالهم عن سيدنا "علي" ـ كرم الله وجهه ـ ومن قول السيدة عائشة عن أبيها "أبي ما أبيه لا تعطوه الأيدي ذاك والله حصن منيف"[1] اعترضت جملة القسم بين المسند إليه (ذاك) والمسند (حصن منيف) لتأكيد وصفها لأبيها وتثبيته في ذهن السامع المشكك والمنكر، فقد كشر الناس عن أنيابهم بعد وفاة الرسول ﷺ، وكانت منهم الردة والامتناع عن آداء الحقوق، وسبّ الصديق، رغم معرفتهم فضله في الإسلام، وجهوده في توحيد كلمة المسلمين بعد تفرقها، فلهذا نزلوا منزلة المنكر وأكد لهم الكلام.

ولما قتل سيدنا "عثمان"أقبلت السيدة "عائشة" متسائلة: "فقالت:أقتل أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم، قالت: فرحمه الله وغفر له، أما والله لقد كنتم إلىٰ تشييد (ويروىٰ الىٰ تسديد) الحق وتأييده، وإعزاز الإسلام وتأكيده، أحوج منكم ما نهضتم إليه من طاعة من خالف عليه، ولكن كلما

(١) - بلاغات النساء ص ٣٥

زادكم الله نعمة في دينكم ازددتم تثاقلا في نصرته طمعا في دنياكم، أما والله لهدم النعمة أيسر من بنائها، وما الزيادة إليكم بالشكر أسرع من زوال النعمة عنكم بالكفر، وايم الله لئن كان فنىٰ أكله واخترمه أجله، لقد كان عند رسول الله كزراع البكرة الازهر، ولئن كانت الإبل أكلت أوبارها، إنه لصهر رسول الله ﷺ، ولقد عهدت الناس يرهبون في تشديد، ثم قدح حب الدنيا في القلوب، ونبذ العدل وراء الظهور، ولئن كان برك عليه الدهر بزوره، وأناخ عليه بكلكله، إنها لنوائب تترىٰ تلعب بأهلها وهي جادة، وتجد بهم وهي لاعبة، ولعمري لو أن أيديكم ـ ويروىٰ أيديهم ـ تقرع صفاته، لوجدتموه عند تلظىٰ الحرب متجردا، ولسيوف النصر متقلدا، ولكنها فتنة قدحت فيها أيدي الظالمين، أما والله لقد حاط الإسلام وأكده، وعضد الدين وأيده، ولقد هدم الله به صياصي الكفر، وقطع به دابر المشركين، ووقم به أركان الضلالة، فلله المصيبة به ما أفجعها! والفجيعة به ما أوجعها! صدع الله بمقتله صفاة الدين، وثلمت مصيبته ذروة الإسلام بعده، وجعل لخير الأمة عهده "[1].

تكرر أسلوب القسم سبع مرات مفتتحا بـ"أما" الشرطية ثلاث مرات (أما والله)، ومرة (وايم الله)، ومرتين (ولئن)، ومرة(لعمري) "أما والله لقد كنتم ... أما والله لهدم النعمة... وايم الله لئن كان ... لقد كان ... ولئن كانت ... إنه لصهر ... ولئن كان برك .... إنها لنوائب ، ولعمري .... لوجدتموه، أما والله لقد حاط ... " والافتتاح بـ"أما" الشرطية تمهيد وتنبيه وتفصيل، أي: مهما يكن من شيء فقد كنتم أحوج إلىٰ تشييد الحق وإعزاز الإسلام، ومهما

(١) – بلاغات النساء ص ٥٢

يكن من شيء فإن هدم النعمة بعدم الذب عنها أيسر من بنائها، ثم أردفته بالقسم وإنما يقسم الإنسان علىٰ أمر عظيم، ويكون القسم لتأكيد المقسم عليه وتحقيقه وتثبيته، لتسترعي سمع المخاطب المنكر وتسد عليه طريق الإنكار، فيرهف أذنيه ليستمع ما بعد القسم، فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من القسم نفسه، واجتمع الشرط مع القسم، وسبق الشرط"أما" علىٰ القسم فالجواب للقسم، ويُلغىٰ الشرط، لأنه إن كان الجواب للشرط لزمت الفاء[1]، كما أن معنىٰ القسم التأكيد ولابد له من جواب، وهو أقوىٰ من معنىٰ المجازاة الشرطية التي قد يحذف فيها الجواب؛ فالشرط معلق الحدوث في المستقبل، والجواب مؤكد بـ(اللام وقد) "لقد كنتم، لقد كان، لقد حاط، لقد هدم"، أو بـ(اللام) "لهدم النعمة"، واللام في"لئن"موطئة للقسم المحذوف، أي: والله لئن، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم (لقد كان عند رسول الله، وإنه لصهر رسول الله ﷺ)، ولا شك أن تردد أسلوب القسم بصيغه المختلفة لم يستعمل في إخراج الكلام علىٰ مقتضىٰ الظاهر، فلا يخاطب القتلة والمتقاعسين عن نصرة "عثمان" والمشككين في إيمانه وصدقه بما يعلمونه، فإذا خوطبوا به نزلوا منزلة المنكرين إشارة إلىٰ أن الخبر الملقىٰ إليهم مما لا يليق بالعاقل إنكاره[2]، ولكنهم أنكروا ولجّوا في الإنكار وأطاعوا مخالفيه، والغرض من تكرار القسم وتوكيد جوابه الاستهزاء بالمخاطبين، والتهكم بهم وإلقاء التبعة عليهم بتحميلهم دم

(١) - ينظر شرح المفصل ٤/ ٢٨٧

(٢) - حاشية المير سيد شريف علىٰ المطول ص ٥٠

عثمان؛ لقصر باعهم وعجزهم عن معرفة الحق، وإعزاز الإسلام، والولاء والطاعة لخليفة المسلمين؛ لما له من فضل علىٰ الإسلام والمسلمين، ولكنهم تجرأوا علىٰ صهر رسول الله ﷺ، وأحد المبشرين بالجنة فقتلوه، مستحلين حرمة البلد الحرام وحرمة الشهر الحرام وحرمة الخلافة، مما أثار غضب السيدة "عائشة" فأطلقت زفرات الغضب تكتنز كثيرا من مشاعر الغضب والأسىٰ والتحسر والذهول، فلم يكن منها إلا سرد أفعاله ومناقبه ولكثرتها استخدمت أدوات الربط (اللام) في جواب القسم لتربط جواب القسم بفعله المحذوف وتؤكده ليزيد تماسكا وقوة، وقد طالت جمل القسم وعطف عليها علىٰ غير المعتاد، فالمعتاد في بلاغات النساء والملحوظ أن الجمل فعلية قصيرة متتابعة، كل جملتين متوازنتان، ولكن المصيبة كبرىٰ، والفجيعة موجعة جعلت صيغ القسم تنثال علىٰ لسان السيدة "عائشة" تهديد وتبكيت لهم لتقيم الحجج عليهم، فلا يستطيعون الإنكار، فابتدأت بحجج عقلية عامة ينبغي علىٰ المسلم الدفاع عنها ونصرتها، وهي تأييد الحق، وتوكيد الإسلام، وطاعة الخليفة باعتباره رمزا لإقامة الدين ووحدة صفوفه وإقامة العدل، وهذا يستوجب شكر النعمة والإسراع إلىٰ نصرة دين الله بنصر الخليفة ومؤازرته؛ لجعله كلمة الله هي العليا، ولكنهم لما طمعوا في زهرة الدنيا ضعفوا واستكانوا وظنوا في ذي النورين الميل والضعف، فساعدوا قتلته، وإذا لم يكن هذا كافيا لطاعة خليفة المسلمين ترقت السيدة "عائشة" بذكر الخاص فذكرت فضله عند رسول اللهﷺ بإبراز المعقول في صورة محسوسة، ثم ترقت بذكر مصاهرته له، للتذكير بالمقسم به، فكأنها أشركت المخاطبين في استنباط دلائل ظلمهم، وألجمتهم بالحجة التي تستوجب قطع

عنادهم وخصامهم، وألجأتهم إلىٰ التفكر والتأمل، "وقد أتاح القسم الجمع بين عدة أدلة في جمل متلاحقة، إنه تقديم لتوثيق الصدق قبل ذكر الدعوىٰ، لأنه يقرع أذني المخاطب، فيصغي ويترقب ما بعده، ثم تجيء الدعوىٰ فيسهل قياده لها، ولكنه إذا فوجئ بالدعوىٰ التي ينكرها، انصرف عنها ونفر منها، فوضع الدليل في صورة القسم التي تفيد تأكيد المحلوف عليه، وتلفت السامع إليه، دون أن تعطي الخصم فرصة الإنكار، أو الفرار كثيرا ما يجيئ للاستشهاد والاستدلال علىٰ صدق المقال، فهو إذن نوع من الدليل الواقعي المحسوس، الذي يستميل المشاعر والوجدان، ويثير الإنتباه والتفكير"(١).

وعندما أسر "يزيد" "زينب بنت علي بن أبي طالب" عنفته ووبخته قائلة: "ولتردن علىٰ الله وشيكا موردهم، ولتودن أنك عميت وبكمت، وأنك لم تقل فاستهلوا وأهلوا فرحا، اللهم خذ بحقنا، وانتقم لنا ممن ظلمنا، والله ما فريت إلا في جلدك ولا حززت إلا في لحمك.... مع إني والله، يا عدو الله، وابن عدوه أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، غير أن العيون عبرىٰ، والصدور حرىٰ"(٢)

تتفجع السيدة "زينب" علىٰ مقتل أخيها والتمثيل بوجهه الكريم، وهالها ما رأته من عبث "يزيد" بثناياه، وسوقها أسيرة، ولكن رغم ذلك لم يمنعها الحزن والألم من مجابهة "يزيد" بجرمه وتقريره بخطئه دون خوف، مذكرة إياه بعاقبته؛ ولأنه ساه ذاهل غافل عن وبال أمره نزلته منزلة المنكر مع أنه ليس

(١)- أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه.د. سامي عطا حسن، http://omarkhattab.blogspot.com/2009/02/blog-post.html-

(٢) - بلاغات النساء ص٧٢

بشاك في الخبر، فأكدت بلام القسم وبنون التوكيد الشديدة مكررة مرتين (لتردن، ولتودن) لإفادة تحقيق الورود والوداد، وصيرورتهما واقعا في المستقبل، وإيقاظ المسلمين إلىٰ ما يعترض أهل الحق وأهل بيت رسول الله ﷺ من ظلم ، ثم أتبعت بأسلوب قسم آخر ولكنه ظاهر صريح "والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك" فقصرت الشق علىٰ جلده، والحزز علىٰ لحمه ، قصر صفة علىٰ موصوف، قصرا حقيقيا، لتوكيد وتحقيق أن ما يقوم به "يزيد" من أفعال القتل والتمثيل والإجرام لن يبوأ بإثمه غيره هو، وأن عاقبة ذلك لن تحيق إلا به، فكثف حضور أسلوب القسم ثلاث مرات سواء كان مذكورا أو محذوفا مدلولا عليه باللام تكثيفا شديدا شعور السيدة "زينب" بالظلم والقهر، شعور وصل إلىٰ طبقة عميقة امتزج فيها المستقبل بالحاضر، فالورود علىٰ الله تعالىٰ قريب، وتمني الصمم والبكم واقع حالة كون الظالم واقفا يشق عن جلده، يحزز في لحمه علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية، ولا تكاد تنتهي من التهديد والإيعاد حتىٰ تترقىٰ السيدة "زينب" في التهوين والإيجاع واللمز والتهكم بأسلوب القسم " مع إني والله، يا عدو الله، وابن عدوه" فأقسمت باسم الجلالة مع حذف فعل القسم (أقسم) إيجازا بالحذف لضيق المقام عن الإطالة بسبب حزن، ثم عبرت بالمظهر في موضع المضمر (يا عدو الله) لتربية المهابة، وإدخال الروع في ضمير السامع[1] بتكرير اسم الجلالة لكون المنادىٰ مختصا بأمر شنيع، وتكرار الوصف بـ"العداوة"

(١) – الإيضاح ص ١٠٢

ليفيد كمال "يزيد" في هذا الوصف لكونه وصفا جينيا انتقل عبر سلالتهم كابر عن كابر، وترثه ذراريهم صاغر عن صاغر.

وبرغم الحزن الذي يسيطر علىٰ النص، والقسوة التي تبدت علىٰ لغته في تراكيب متزنة وقورة متسمة بالجد والصرامة لا تفصح عن مكنوناتها إلا أن الإيقاع الصوتي وشىٰ بالمعاني المحبوسة، فورود الجناس بين (لتردن ولتودن) و(لتردن وموردهم)، وتكرار (أنك) مرتين، وتكرار أسلوب القصر المتوازن صوتيا (ما فريت إلا في جلدك ولا حززت إلا في لحمك)، وتكرار اسم الجلالة ، ولفظة (عدو)، وتكرار الوزن الصرفي (أستصغر وأستعظم) يزيد من إثارة حس المتلقي علىٰ تتبع المتماثلات الصوتية وفليها عن المعاني المحتجبة وراء الصوت المتردد، إن الإبداع هنا في مزج الإحساس الداخلي بالمعنىٰ مع البنية التشكيلية المكونة لهذا المعنىٰ بعيدا عن متاهات الخيال المموهة، ومناسبة لمقام الحزن والتقريع.

ومن لوم وتقريع السيدة "أم كلثوم" لأهل الكوفة حين خذلوا أخاها"الحسين"، وتسببوا بمقتله، وجلسوا يبكون عليه، فقالت: "أتبكون؟ أي[1]والله، فابكوا، وإنكم والله أحرياء بالبكاء"[2] متعجبة من هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون حديثا، فتدير حوارا جدليا تسأل "أتبكون؟"وترد علىٰ نفسها؛ لأنها لن تقتنع بإجاباتهم ومبرراتهم، ولفرط ما هي فيه من عجب

(١) – وجدتها في بلاغات النساء(أي) بفتح الهمزة، والصحيح أنها (إي) بكسرها بمعنىٰ: نعم جوابا لمن سأل عن الخبر، وتقع وبعدها القسم.شرح المفصل ٥/ ٥٨، ولسان العرب مادة(أيا).

(٢) – بلاغات النساء ص ٧٦

ودهشة تولت الإجابة بنفسها ذاهلة عما كان من أمرهم، متحيرة من خداعهم، فاستفهامها علىٰ جهة الإنكار والاستهزاء والتعريض بأن بكاءهم ليس بكاء حقيقيا، فبدت وكأنها تتجاهل الدموع التي تنحدر بغزارة من مآقيهم، فسألتهم مستفهمة "أتبكون؟"، ولما كان هؤلاء القوم مخادعين أقرت هي بجوابهم "إي والله" إيجابا وتصديقا وتوكيدا، وتصل السخرية والتهكم ذروتهما في قولها:(وإنكم والله أحرياء بالبكاء) حيث تكرر أسلوب القسم معترضا بين اسم إن المؤكدة وخبرها لتوكيد معنىٰ التهكم والاستهزاء والتعريض المفهوم من الاستفهام (أتبكون)، وفي تكرار لفظ (البكاء) بمشتقاته (أتبكون، فابكوا، بالبكاء) ففي مقام الاستفهام وتصوير الحال عبرت بالمضارع، ثم ترقت في سخريتها وتهكمها بهم فانتقلت إلىٰ الأمر ناصحة وموجهة ومرشدة إلىٰ البكاء، ولما كان المخاطب قد لا يمتثل للطلب الإنشائي، أثبت لهم البكاء إثباتا مستمرا بالجملة الاسمية المؤكدة بـ"إنكم" وأسلوب القسم، والغرض هو التهكم والسخرية والتعريض، والتعبير بالمظهر (بالبكاء) موضع المضمر (به) ترصيعا للكلام بتماثل أجزاء تركيبه، وكمال العناية بالبكاء بتمييزه لكون المخاطبين أحرياء به لشناعة فعلهم تهكما بهم.

ومن الأجوبة المسكتة جواب "سودة" علىٰ معاوية: "استاذنت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية علىٰ معاوية بن أبي سفيان فأذن لها فلما دخلت عليه قال: هيه يا بنت الأسك ألست القائلة يوم صفين:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطّعان وملتقىٰ الأقران

وانصر عليًّا والحُسينَ ورهطه ... واقصد لهندٍ وابنها بهوان

إن الإمـام أخـو الـنـبـي مـحـمـد عـلـم الـهـدىٰ ومـنـارة الإيـمـان
فقـه الحتوف وسـر أمـام لوائـه قـدمـا بـأبيض صـارم وسـنـان

قالت: أي والله، ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب، قال لها: فما حملك علىٰ ذلك؟ قالت: حب علي عليه السلام واتباع الحق، قال: فوالله ما أرىٰ عليك من أثر عليّ شيئا، قالت: أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضىٰ، وتذكار ما قد نسىٰ، قال: هيهات ما مثل مقام أخيك ينسىٰ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك قالت: صدق فوك، لم يكن أخي ذميم المقام، ولا خفي المكان، كان والله كقول الخنساء:

وَإِنَّ صَـخْـرًا لـتـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأَنَّـهُ عـلـمٌ في رَأسِـه نَـارُ

قال: صدقت، لقد كان كذلك، فقالت: مات الرأس، وبتر الذنب، وبالله أسال أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه"[1]

اعتزت "سودة" بنفسها، فأعلنت جوابها صراحة عندما سألها معاوية عن هجائها إياه بالشعر يوم "صفين" قائلة:(أي والله، ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب) فأقرت بذلك، وكان يكفيها الإثبات والإقرار، ولكنها أكدت جوابها بأسلوب القسم المحذوف الجواب (أي والله لقد قلت ذلك) مُنَزِّلة "معاوية" منزلة المنكر، لسؤاله إياها عما يعلمه ظنا منها أنه ربما سهىٰ أو غفل وهذا بالنسبة لحال المتكلم "معاوية"، أما بالنسبة لحال المرأة فإنها تيقنت أنه أراد اختبار صدق معتقدها وثباتها علىٰ رأيها فأجابته مغالطة له (ما مثلي) ولم تقصد التعريض به بل أرادت الاعتزاز بنفسها ورأيها وأن مَنْ كان

(١)- بلاغات النساء ص٨٨

مثلها في ذلك لا ينبغي أن يغير رأيه، فيتجاهل "معاوية" جوابها ويسألها مرة أخرىٰ (فما حملك علىٰ ذلك؟) فتجيب صراحة دون مواربة:(قالت: حب علي عليه السلام واتباع الحق) تعريض بأن غيره لا يتبع الحق، ففهم "معاوية" مغزاها، فأراد أن يغلظ لها في الكلام فقال:(فوالله ما أرىٰ عليك من أثر عليّ شيئا) فأجابت: (أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضىٰ، وتذكار ما قد نسىٰ) فلجأت إلىٰ أسلوب القسم هنا التماسا وتوسلا واستعانة بالله عليه، لعلمها بحلم معاوية وصبره، ولكنه خالف توقعها مجيبا:(هيهات ما مثل مقام أخيك ينسىٰ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك)، فردت عليه واثقة من نفسها بعد أن ناشدته بالله وتوسلت به أن يكف عن استرجاع ما كان فينقلب الموقف فتكون أقوىٰ الطرفين، في حين نرىٰ "معاوية" مستكينا "قالت: صدق فوك، لم يكن أخي ذميم المقام، ولا خفي المكان، كان والله كقول الخنساء:

وَإِنَّ صَـــخْرًا لتـأتـمُّ الـهـداةُ بـه كـأَنَّـهُ عـلـمٌ في رَأسِـــه نَـارُ

فدعت له بدوام الصدق، وعدلت عن الإنشاء إلىٰ الخبر للتفاؤل وإدخال السرور عليه، وجعلت الفم صادقا ولكن الكلام هو الذي يوصف به عندما يكون مطابقا للحقيقة والواقع، فأطلقت المحل (الفم) وأرادت اللسان؛ لأنه الفم محله كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ (الشعراء:٨٤) فالعلاقة محلية، واللسان آلة الكلام من إطلاق اسم الآلة علىٰ ما يحصل بها، ثم انتقلت مرة أخرىٰ بانفعالية إلىٰ موقف الدفاع لتصفية حساب نفسي أخير بينها وبين "معاوية" عبر أسلوب الطباق السلبي (لم

يكن، كان) بتكرار فعل الكون، وسلبه في موقف وإثباته في آخر، مستدعية أسلوب القسم الإنشائي معترضا بين كان واسمها (كان والله كقول الخنساء) لتأكيد وتقرير فضل "علي" حسا وخُلُقا، وطبع ذلك في النفوس ووقره فيها، واستدلت بقول الخنساء الذي صار مثلا يضرب في الشجاعة والإقدام علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية، ولم يجد "معاوية" مدخلا يأوي إليه، فأقر بالفضل ورد بـ(صدقت، لقد كان كذلك)، وهنا تهدأ الثورة الانفعالية التي شنتها المرأة في مواجهة "معاوية" بأجوبتها الصارمة إلىٰ الوصول إلىٰ مفترق طرق (فقالت: مات الرأس، وبتر الذنب، وبالله أسال أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه) لتضع الحرب أوزارها، فتعود وتتوسل مرة أخرىٰ بأسلوب القسم (وبالله أسال أمير المؤمنين) ووصفت "معاوية" بإمارة المؤمنين تمهيدا للدخول تحت لوائه، ونبذا لعصا الشقاق.

وحين وفدت "أم الخير" ـ من أنصار عليّ ـــ علىٰ "معاوية" دار بينه وبينها حوار:" فقال معاوية :بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم، قالت: مه يا هذا، لك والله من دحض المقال ما تردىٰ عاقبته، قال: ليس لهذا أردناك، إنما أجري في ميدانك إذا أجريت شيئا أجريته، فاسأل عما بدا لك، قال كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن والله رويته قبل، ولا زورته بعد، .....فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلي، والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك، قالت: والله ما يسؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك علىٰ يدي من يسعدني الله بشقائه"[1]

(١) -بلاغات النساء ص99

أراد "معاوية" أن يكظم مشاعره الحقيقية، متظاهرا بالحلم والتفاهم عن طريق إجراء حوار مع المرأة، إن له حسابا قديما معها، ويريد أن يصفيه، فلجأ إلىٰ التقديم والتأخير، فتقدم الجار والمجرور(بحسن نيتي) وبدأ بذكره أولا ليوقعه أولا في سمع المرأة؛ لينبهها إلىٰ هذه الصفة التي استحق من أجلها الظفر بهم والاستعانة عليهم "وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفىٰ للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق"[1]، فـ(الباء) في(بحسن) للاستعانة، أي: لم أستعن عليكم بجيش أو تدبير أو خطة محكمة ولكن إيماني وحسن توكلي علىٰ الله تعالىٰ، وهو عليم بسري وعلانيتي أعانني عليكم وأظفرني بكم، حيث جعل النية صحيحة بقرينة إضافة الحسن إليها، علىٰ سبيل المجاز العقلي، فلم تهب المرأة مقام الخليفة، وبادرته مقاطعة (مه يا هذا، لك والله من دحض المقال ما تردىٰ عاقبته) فزجرته وطلبت منه الكف بصيغة مهينة مبتذلة (مه)، وزادته تحقيرا بنداء البعيد والإشارة إليه بالقريب، وهو أبلغ في تحقيره من الإشارة إليه بالبعيد، فأذاه بالإشارة إليه لكون حاضرا أخص من أذاها إياه في مغيبه[2]، والعدول عن ندائه باسمه العلم إلىٰ اسم الإشارة لنكتة وهي أن البعيد المقام لا يرتكب قتال المسلمين، ومنازعة بيت النبوة علىٰ الخلافة، واللجوء إلىٰ الحيل للظفر؛ فنودي باسم الإشارة القريب لما يلزم هذا القرب المكاني من قرب المرتبة ودناءة المحل "توجيه الملفوظ نحو ما يلزم عنه"[3]، ثم نزلته منزلة المنكر بالاعتراض بجملة القسم بين المسند والمسند إليه لأنه

(١) – دلائل الإعجاز ص١٣٢

(٢) – ينظر تفسير قوله تعالىٰ: "أهذا الذي يذكر.." .التحرير والتنوير١٨/ ٦٦

(٣) – في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات.د. عبدالله صولة، ص٨٨، ط١، مسكيلياني للنشر والتوزيع.تونس٢٠١١م.

يعلم عنها جرأة القلب، وصلابة الرأي، وحدة اللسان ورغم ذلك استهل حديثه بأنه استحق الظفر والمعونة من الله عز وجل لحسن نيته، فاعترضت بأسلوب القسم لتنبيهه وزجره وصرفه عما ابتدأ به، وكأنه أنكر أن المرأة تعلم كيف وصل إلىٰ كرسي الخلافة، فنكص علىٰ عقبيه وأجاب (ليس لهذا أردناكِ، إنما أجري في ميدانكِ إذا أجريت شيئا أجريته) فأجابته المرأة بثقة: (فاسأل عما بدا لك) وقد بدت الثقة في حروف كلماتها فذكرت فعل الطلب (اسأل) تاما علىٰ الأصل لوقوعه بعد الفاء[1]، ولم تلجأ إلىٰ التخفيف(سل)، كما أن (ما) الموصولة المبهمة أفادت إمكانية السؤال عن أي شيء سواء كان عظيما أو تافها، فبادرها "معاوية بالسؤال ليثير انفعالها، ويشتت انبتاهها، ويزعزع استقرارها النفسي (كيف كان كلامك يوم قتل عمّار بن ياسر؟) فلم يسأل عن كلامها يوم صفين عامة، وإنما خص مقتل الصحابي "عمار بن ياسر" ﷺ بالذكر، تلويحا بقوة جيشه وشجاعته، فأجابته بحكمة بالغة ومنطق صقيل (قالت: لم أكن والله رويته قبل، ولا زورته بعد) فاستهلت جوابها بـ(لا) النافية الجازمة التي أفادت عدم وجود الكون أصلا فيما مضىٰ وانقطاعه، ثم كررت النفي، فنفت بـ(لا) لتوكيد النفي، وأفاد الطباق بين (قبل وبعد) انتفاء الرواية والتزوير في جميع الأزمان، قبل صفين وبعدها، واعتراض أسلوب القسم بين اسم (أكن) وخبرها لتوكيد وإثبات انتفاء الرواية والتزييف، وتكرار النفي ووجود أسلوب القسم تنزيل لـ"معاوية" منزلة المنكر، لسؤاله عن كلام جاش به صدر المرأة وقت احتدام المعركة فقذفه علىٰ لسانها مرتجلا دون تكلف له؛ لوروده عن عاطفة صادقة وحب

(١) - ينظر التحرير والتنوير ٢/ ٢٨٨ تفسير قوله تعالىٰ:{سل بني إسرائيل}(البقرة:٢١١).

صادق لآل بيت النبي ﷺ؛ ثم ترقت في التوكيد فلم تكتف بالنفي بل أكدت بأسلوب القصر(وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة) وهذا القول لا يقال إلا ولـ"معاوية" علم به وإقرار، ولكنه لما سألها عنه نزل منزلة من ينكره، وبعد سماع "معاوية" كلامها ممن حفظه ورواه عنها عقب بقوله: (والله يا أم الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلي، والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك، قالت: والله ما يسؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك علىٰ يدي من يسعدني الله بشقائه) كرر "معاوية" أسلوب القسم مرتين؛ لتهديد المرأة، فيبلغ أثر تهديده أعماق وجدانها فترتعد، والإتيان بأسلوب قصر طريقه النفي والإثبات لجعل حال "معاوية" حال من ظن أن المرأة تحرض علىٰ قتله، وأن في وسعها أن تقوم بذلك، ولأنه شاك فرض شرطا بـ"لو" غير حاصل، فنُزل منزلة المنكر والشاك، فكان رد الفعل أن تحدته المرأة، وأعادت كلامه علىٰ وجهه "استجابة لثورة النفس، وإباء للإهانة والضيم"[1]مكررة أسلوب القسم، وندائه باسم أمه (يا ابن هند) إشارة وتذكرة إلىٰ ما كان من أمه في غزوة أحد، ولم تضعه بموضع العجز وأنه لا يستطيع، بل عالجت الموقف بإخراج الكلام ضد مقتضىٰ الحال بإخراج الكلام مخرج الهزل الذي يراد به الجد عبر أسلوب الطباق بين (يسعدني وبشقائه) استهزاء بـ"معاوية"، كما عبرت بالمظهر في موضع المضمر، فعبرت باسم الجلالة ظاهرا (أن يجري الله) ثم أظهرته في موضع الإضمار(يسعدني الله) زيادة في التهكم به والسخرية منه، وإدخال الروع في نفسه.

(١)- التكرير بين المثير والتأثير. د.عزالدين علي السيد، ص١٣٢، ط١،- دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

نوعت المرأة أساليب التهكم بخروج الخبر علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر مرتين ، وأسلوب الطباق، وهذه الأساليب مجتمعة أفصحت عن قوة نفس المرأة، ورباطة جأشها، وصدق حبها لعليّ ـ كرم الله وجهه ـ فلا تبالي إذا قتلت فداءه.

دخلت "أم سنان بنت خثيمة" علىٰ "معاوية" لحاجة لها، وكانت ممن تشنأ قربه، وتحضّ عليه عدوه، فسألها "معاوية" علىٰ تحريضها عليه وقولها فيه بالذم والبغض، فلم تنكر مقالتها، وأجابت بجرأة وثقة قائلة: "لسان نطق وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا، فحظك أوفر، والله ما أورثك الشناءة في قلوب المسلمين إلا هؤلاء، فادحض مقالتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ازددت بذلك من الله تبارك وتعالىٰ قربا، ومن المؤمنين حبا، قال: وإنك لتقولين ذلك، قالت: يا سبحان الله! والله ما مثلك من مدح بباطل، ولا أعتذر إليك بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله علي ﷺ أحب إلينا من غيرك إذ كنت باقيا، قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، قال: وبم استحققت ذلك عليهم؟ قالت: بحسن حلمك، وكريم عفوك، قال: وإنهما ليطمعان فيّ، قالت: هما والله لك من الرأي علىٰ مثل ما كنت عليه لعثمان رحمه الله "(١)

تكرر أسلوب القسم ست مرات، "لئن" اللام موطئة لجواب لقسم، وإذا اجتمع القسم مع الشرط، فالجواب للقسم "اعلم أن اليمين لا بدّ لها من جواب، لأن القسم جملة تؤكّد بها جملة أُخرىٰ، فإذا أقسمت علىٰ المجازاة، فالقسم إنما يقع علىٰ الجواب، لأن جواب المجازاة خبرٌ يقع فيه التصديق

(١) - بلاغات النساء ص ١٤٠

والتكذيب، والقسمُ إنما يؤكد الإخبارَ .ألا ترىٰ أنك لا تقول" :والله هل تقوم"، ولا" والله قم"؛ لأن ذلك ليس بخبر، فلمّا كان القسم معتمدًا به الجوابُ؛ بطل الجزم، وصار لفظه كلفظه لو كان في غير مجازاة"[1]، ولم يقع القسم حشوا فيُلغىٰ، ولكن الجواب اقترن بالفاء(فحظك أوفر) فدل أن الجواب للشرط، وكانت أداته (إن) التي خرجت عن أصلها ـ الشك والتوهم ـ واستعملت هنا في المجزوم علىٰ سبيل تجاهل المتكلم[2]؛ لتُوهِم معاوية أنها غير جازمة؛ ولذلك جاء المسند إليه (ما ظننا) معرفا بالموصولية، و(ما) مبهمة، والظن شك، وما دام المقام شكا وعدم تصديق بدلائل منها: هجاء المرأة قبلُ لمعاوية، وعلمه بذلك، ومشايعتها لعلي كرم الله وجهه، فأكدت له الكلام بأسلوب القصر المؤكد بالقسم (والله ما أورثك الشناءة في قلوب المسلمين إلا هؤلاء) فنفت عن نفسها الشناءة وأثبتتها لجلساء معاوية ممن ينقلون الأخبار ويكثرون الوشاية بالناس، ولذلك أنزلته منزلة المنكر، لأنه يدفع أن يكون هؤلاء الجلساء كذلك ويجدّ في الإنكار، ثم أتبعت بأسلوب الطلب (فادحض مقالتهم، وأبعد منزلتهم) للتوجيه والإرشاد إلىٰ ما ينبغي أن يكون، وقد وصلت هذه المرأة إلىٰ قدر لا يستهان به من الذكاء والدهاء والحيطة، فلم توجهه إلىٰ إبعاد الجلساء كلية، فتتوغر صدورهم نحو معاوية، فيخشىٰ مكرهم، ولكنها أوقعت الدحض والإبعاد علىٰ المفعول به (مقالتهم ومنزلتهم) ليتحقق وجودهم جسدا وغيابهم مشورة ورأيا، ثم أتبعت التأكيد

(١) – شرح المفصل ٤/ ٢٨٧

(٢) – عروس الأفراح. بهاء الدين السبكي،٢/ ٤٤

بآخر (فإنك إن فعلت ازددت بذلك من الله تبارك وتعالىٰ قربا، ومن المؤمنين حبا) فأكدت بـ(إن) لأن لمعاوية ظنا في الخلاف، وعقد قلب علىٰ نفي ما تثبت، وإثبات ما تنفي[1]؛ ولعلمها بهذا الظن واعتقاد عدم التصديق والتردد وضعت نصيحتها موضع المجزوم به؛ فعبرت بـ"إن"؛ ولذلك رد معاوية قائلا:(وإنك لتقولين ذلك) توبيخا لها، وأكد الخبر بـ"إن" و"اللام" للاهتمام بلفت الجلساء الذين رووا هجاءها له وإثارتهم؛ فنزلها منزلة المنكر لعدم جريها علىٰ مقتضىٰ حالها، فردت المرأة متعجبة من إنكار معاوية وعدم تصديقه: (يا سبحان الله! والله ما مثلك من مدح بباطل، ولا أعتذر إليك بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا) فغالطته، وأكدت أن كل من كان مثله في الحلم، والعفو، والعطاء يستوجب المدح، ثم حملته علىٰ الإقتناع فأكدت بتنزيله منزلة من ينكر أنه يعلم؛ لأن حاله في إنكار قول المرأة كحال من لا يعلم صدق رأيها وضمير قلبها، أي: نحن نعلم أنك قد علمت ما مدحناك بباطل، وإنك تعلم صدق رأينا وضمير قلوبنا، ثم أردفت بتصحيح معلومة له فقالت: (كان والله عليّ ﷺ أحب إلينا من غيرك إذ كنت باقيا، قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص) ففضلت حب عليّ ﷺ علىٰ غيره، وأكد أسلوب القسم المعترض بين (كان) واسمها تقوية هذه الدعوىٰ وتحقيقها، وعرضت بغيره ممن لا يستحقون الخلافة وتولي أمور المسلمين، واحترست بـ(إذ كنت باقيا) لدفع توهم بغض تولي معاوية للخلافة، ويتنامىٰ الحوار ويتصاعد بين معاوية والمرأة، فلم يلجأ معاوية إلىٰ

(١) – ينظر دلائل الإعجاز ص٢٣٥

قمعها ومغالطتها، بل داراها بحثا عن الحقيقة، مكترثا بما ينبغي أن يكون عليه من يتولىٰ شؤون المسلمين فسألها: (وبم استحققت ذلك عليهم؟) فأجابت:(بحسن حلمك، وكريم عفوك)، فسألها: (وإنهما ليطمعان فيّ)، فأجابت:(هما والله لك من الرأي علىٰ مثل ما كنت عليه لعثمان رحمه الله) اعترض أسلوب القسم بين المسند إليه والمسند لتوكيد وتحقيق رأيها في سعيد ومروان، فهما خاصة معاوية ومستشاريه كما كان معاوية مع "عثمان" ﷺ، إذ كان محل ثقته، يبعث إليه بالخوارج لتأديبهم، وولاه بلاد الشام كلها دون عزل، وهكذا أنهت المرأة الحوار علىٰ نحو محايد في الظاهر، ولكنه مليء بالصراعات الذهنية والشعورية، فعندما استهدفت المرأة عملية التوثيق والتقرير استدعت الأدوات المنتجة له مثل: أسلوب القسم، وصيغ التأكيد، والتكرار، وعندما استهدفت الانفعالية استدعت الصيغة الإنشائية بوصفها مثيرة للتساؤل أحيانا ومنتجة للأوامر أحيانا أخرىٰ[1]، ولكن الحوارية التي اعتمدها معاوية مع المرأة سامحا لها بإبداء رأيها بمنتهىٰ الجرأة والصراحة تكثف خلالها أسلوب الاستفهام تكثيفا شديدا في محاولة لاستظهار باطن المرأة، وقد وعت المرأة هذا فعمدت إلىٰ تكرار أسلوب القسم لتقرر وتؤكد صحة آرائها، وتخللته بعض أساليب الطلب، لأن تكرار القسم أدعىٰ إلىٰ امتثال الأمر، والأخذ بالنصيحة.

(١) – ينظر بلاغة السرد.د. محمد عبد المطلب، ص١٥٧،ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠١٣م.

٢- التعبير بالمظهر في موضع المضمر:

ضرب من العدول عن الأصل، والانحراف عن النسق المألوف لتركيب الجملة إلىٰ نسق إبداعي غير مألوف، يمثل الطاقة الإيحائية في الأسلوب التي تتصل بالمعنىٰ وتلونه، وتصله بحال المخاطب(١)، فإذا تقدم ذكر العائد علىٰ الضمير نكني عنه إيجازا، واحترازا من التعمية والإلباس بذكر الاسم الظاهر، وتجنبا لتكراره(٢) ولكن قد يوضع المظهر لأنه الأصل موضع المضمر"لعروض اعتبار آخر ألطف من ذلك الظاهر"(٣)، وقد ورد هذا العدول في بلاغات النساء في مقامات التخويف، والترهيب، والتذكير بالله عز وجل، وسطوته، وسخطه، واتقاء عذابه، فيكون لاسم الجلالة من التأثير والاستجابة والانفعالية ما لا يمكن للضمير أن يحمله ولا أن يفي به، فقد روي أن "عائشة" كانت تقول: لا تطلبوا ما عند الله من غير الله بما يسخط الله"(٤) فلو قالت: من غيره بما يسخطه، لكن وفاء بالمعنىٰ، ولكنها عدلت إلىٰ الاسم الظاهر؛ لأن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره "وإذا حدثت عن اسم مضاف، ثم إذا أردت أن تذكر المضاف إليه، فإن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره"(٥)، فتكرار اسم الجلالة

---

(١) - ينظر البلاغة والأسلوبية.د. محمد عبد المطلب، فصل (العدول)، ص٢٦٩،ط٥، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ٢٠١٨م.

(٢) - ينظر شرح المفصل ٢/ ٢٩٢

(٣)- مواهب الفتاح .ابن يعقوب١/ ٤٤٨

(٤) - بلاغات النساء ص ٤٠

(٥) - دلائل الإعجاز ص٥٥٥

ثلاث مرات تكرارا مقصودا للتهويل والتعظيم، والإجلال، وإدخال الروع وتربية المهابة في النفوس، "وموجب لتقوية الداعي علىٰ الامتثال"[1] فإن اسم الجلالة يظهر عجز البشر عن النفع، ويشعر بالخوف منه عز وجل إذا تحول العبد إلىٰ استجداء الناس، والتزلف إليهم بالمداهنة والخداع، وترك التوكل علىٰ الله عزوجل؛ لأجل ذلك كانت إعادة اللفظ بالاسم الظاهر " إن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف"[2].

ومن كلام السيدة "زينب" أخت "الحسين" حين قتل أخوها:"وقد قتل الحسين ـ عليه السلام ـ وحزب الشيطان يقربنا إلىٰ حزب السفهاء، ليعطوهم أموال الله علىٰ انتهاك محارم الله، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات فلئن اتخذتنا مغنما، لتتخذن مغرما، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ يا ابن مرجانة، ويستصرخ بك، وتتعاوىٰ وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فو الله ما اتقيت غير الله ولا شكواي إلا إلىٰ الله"[3] عبرت المرأة بالاسم الظاهر(الله) (محارم الله، غير الله، ولا شكواي إلا إلىٰ الله)، وكان الظاهر أن تقول: محارمه، وغيره، ولا شكواي إلا إليه، ففي إظهار اسم الجلالة تخويف وإرهاب وردع لقتلة الحسين الذين استحلوا أموال الله بغير حق وانتهكوا

(١) – مواهب الفتاح ١/ ٤٥٩

(٢)– دلائل الإعجاز ص٥٥٦

(٣)– بلاغات النساء ص٧٣

محارمه، وإنكار عظيم لفعلتهم، وغضب شديد من خيانتهم، وهضم لهم، وفي اتقاء الله والشكوىٰ إليه تضرع ولجوء إليه عز وجل من السيدة "زينب" واختصاصه عز وجل بالشكوىٰ دون غيره؛ ولذلك لزم إظهاره ليتقرر في ذهن السامع.

وفي مقام الحزن والرثاء وقتل الخلفاء المبشرين بالجنة لم تجد النساء المحتسبات المؤمنات إلا الصبر واللجوء إلىٰ الواحد القادر علىٰ جبر أنفسهن ونصرتهن؛ ولذلك لجأت "حفصة بنت عمر" بشكواها إلىٰ الله، وكررت اسمه العظيم لتبرز حجم الجرم الذي ارتكبه قاتلوه، تقول: "وأما بعد فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم، وارعوىٰ إلىٰ صنيعهم، ورب في الفتنة لهم، ونصب حبائله لختلهم، حتىٰ همّ عدو الله، بإحياء البدعة، ونبش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثوره، وإراقة الدماء، وإباحة الحمىٰ، وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها، فأضرىٰ وهاج وتوغر، وثار غضبا لله، ونصرة لدين الله"[1] إضافة المسند إليه (عدو) إلىٰ (الله) تحقير لشأن المضاف (عدو) وتخصيص له بهذه الصفة الشنيعة، لمجاوزته الحق، وعدوه عنه إلىٰ إحياء البدع، ونبش الفتن، وتجديد الجور، وإراقة الدماء، وإباحة الحمىٰ، ثم أظهرت اسم الجلالة في موضع الإضمار(انتهاك محارم الله) وكان يمكنها الإضمار(محارمه) لتقدم ذكره، ولكن الإظهار فيه من التخويف والتقريع والتنبيه علىٰ عظم الأمر ما فيه، ثم أعيد الاسم الظاهر مرة أخرىٰ (غضبا لله، ونصرة لدين الله) وكان يمكنها أن تقول: غضبا له ونصرة

(١) -بلاغات النساء ص٧٩

لدينه، فالإظهار ورد علىٰ جهة الإنكار لأفعالهم المشينة، وشدة الغضب منها، والتعجب من عنادهم وجحدهم(١)، كما أن الإلحاح علىٰ تكرار اسم الجلالة من السيدة "حفصة" والسيدة "زينب" في مواقف الصراع بين الحق والقوىٰ الغاشمة القاتلة، وانتصار الباطل، ولكن الإيمان بالله وحسن التوكل عليه عامل مهم اتكأت عليه النسوة اللواتي امتلأن يأسا وحزنا لغياب الناصر والسند، ووجدن أن الانفراج الوحيد الممكن للتأزم، وحل عقدة الصراع، وحفظهن من الانهيار الكامل هو اللجوء إلىٰ ملاذ الله الآمن، فكررن اسمه العظيم ليقرع أسماع الغفلة والقتلة، فترتعد فرائصهم، ويتزلزل كيانهم، وهذا ما نجده في حوار "أروىٰ بنت الحارث" لـ"معاوية" عندما طلبت منه مالا وأعطاها عن سمح نفس، ثم قارن بينه وبين "علي" كرم الله وجهه في العطاء، فقال: " أما والله، لو كان عليّ ما أمر لك بها، قالت: صدقت، إن عليًّا أدىٰ الأمانة، وعمل بأمر الله، وأخذ به، وأنت ضيعت أمانتك، وخنت الله في ماله، فأعطيت مال الله من لا يستحقه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها، فلم تأخذ بها، ودعانا (أي علي) إلىٰ أخذ حقنا الذي فرض الله لنا، فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها، وما سألتك من مالك شيئا فتمن به، إنما سألتك من حقنا، ولا نرىٰ أخذ شيء غير حقنا"(٢) وفدت "أروىٰ" علىٰ "معاوية" وهي صاحبة حاجة، وهذا مقام يقتضي التودد والتلطف ولكنها رأت أنها تطلب حقا فرضه الله عز وجل لها في ماله، فطلبت من معاوية

(١) – الطراز. يحي بن حمزة العلوي، تح:د. عبد الحميد هنداوي، ٢/ ٧٩، المكتبة العصرية١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

(٢)– بلاغات النساء ص ٨٥

بجرأة ستة آلاف دينار، فأعطاها سمحا، ثم ذكرها بسيدنا "علي" كرم الله وجهه مؤكدا أنها لو طلبت منه ما أعطاها رغم حبها له ومشايعته ومناصرته ، فأقرت المرأة وصدقت، ثم شفعت مغالطة معاوية في ظنه، فقد كان يظن أنها ستمدحه بالحلم والجود حين أجزل عطاءها، ولكنها نزلته منزلة المنكر الذي يغالط ويجادل ويزعم أنه أفضل فلذلك استحق الخلافة، ففارقت بينهما بأسلوب الطباق (أدىٰ وضيعت) (فلم تأخذ وأخذ)، ثم زادت في النكال لمعاوية بإسناد عطائه مال الله من لا يستحق، فأظهرت المال واسم الجلالة (مال الله) في موضع إضماره، وكان يمكنها أن تقول: (فأعطيته) لتقدم ما يعود إليه الضمير، ولكنها كررتهما وأظهرتهما، وأضافت المال إلىٰ الله تخصيصا للمولىٰ عز وجل بملكيته والتصرف فيه، وتعريضا بعدم استحقاق "معاوية" للمنع والإعطاء إلا في ضمن ما شرعه الله، وأن ما تطلبه من مال لست صاحبه فتمنّ به عليها، ثم كررت الجملة (فرض الله) بتكرار لفظ الفرض، وإظهار اسم الجلالة في موضع إضماره لدفع توهم أن يكون المال المبذول لها هبة أو عطية تفضل بها "معاوية" من خاص ماله، وهي في تتابع عباراتها وسرد حججها باستحقاقها المال تنزل "معاوية" منزلة المنكر الذي يدفع أن يكون استحقاقها للمال حقا مفروضا، فعدلت عن مقتضىٰ الظاهر وخاطبته بما يقتضي خطاب المنكر فأظهرت في موضع الإضمار، وأكدت، واستخدمت أسلوب القصر، لتقوي حجتها، وتدعم أدلتها، وتثبت حقها.

الفصل الثاني
مباحث البيان

أولا: التشبيه:

جاءت معظم الصور التشبيهية حسية، ومنها تشبيه السيدة عائشة رضي الله عنها الصِّديق الخليفة الأول للمسلمين : " أبي ما أبيه لا تعطوه الأيدي ذاك والله حصن مُنيف، وظل مديد، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استولىٰ علىٰ الأمد، فتىٰ قريش ناشئا وكهفها كهلا"(1)

شبهت السيدة "عائشة" رضي الله عنها أباها بالحصن المنيف، بجامع القوة والمنعة والعلو في كل، وشبهته بالظل المديد بجامع الحماية في كل، وشبهته بالكهف قيد كونه كهلا بجامع الملاذ واللجوء والحماية في كل، تشبيهات حسية بيِّنة معروفة في بيئة العربي (الحصن والظل والكهف) ولكنها لم ترد هذه الصور المعروفة المحسوسة، فتجاوزتها إلىٰ المعاني المجردة (القوة والملاذ والملجأ)، ففرق بين أن تسرد هذه المعاني المجردة وبين ما تدل عليه صورة الحصن العالي الذي لا يستطيع أحد الوصول إليه، وصورة الكهف المكين في مستقر الجبال، وصورة الظل المديد الذي يحمي من يلوذ به، والغرض من تنوع صور المشبه به تقرير صفة المشبه في ذهن السامع وتأكيدها، ثم شبهت سبقه حين يتباطئ الناس بسبق الفرس الجواد إذا أسرع وبلغ غاية السباق بجامع السرعة وبلوغ الغاية في كل، تشبيه مقيد، فالمعنىٰ علىٰ وقوع السبق إلىٰ المعالي ووجوده من أهله، وليس المعنىٰ علىٰ تشبيه

(1) – بلاغات النساء ص ٣٥

الصديق ﷺبالجواد السريع، ولكن من حيث وقوع الحكم الحاصل له من سبق الجواد إذا استولىٰ علىٰ الغاية، تشبيه أبرز مقدار صفة المشبه من السرعة، وحذف الصفة وأقيم الموصوف مقامه لخصوص صفة السرعة بالفرس.

وعندما قتل سيدنا "عثمان بن عفان" ﷺخرجت السيدة "عائشة" وخطبت في الناس مستنكرة هذا الفعل فقالت: "..بعد أن مُصناه كما يمُاص الإناء"(١) فشبهت نقاءه مما نسب إليه من محاباة ذوي القربىٰ وإعطائهم بغسل الإناء، بجامع الإزالة ونفي الخبث في كل، تشبيه أخرج ما لا يدرك بالحاسة إلىٰ ما يدرك بها، فالمَوَص: الغسل، هذا الفعل يوحي بأن "عثمان" ﷺ لم يكن جبارا، فقد بيّن لهم أن إيتاءه ذوي القربىٰ كان من ماله الخاص كما كان دأبه في حياة المصطفىٰ ﷺ، وعَزَل من لم يرتضوه حاكما عليهم وبعد ذلك قتلوه ظلما، كما يوحي بفساد هؤلاء الرعية، وبطشهم، وعدم إكبارهم لخليفة المسلمين، وحسن هذا التشبيه فيما بين الطرفين من تباعد، لأن الاستتابة محو معنوي، أما الموص فهو إزالة مرئية لجميع ما يعلق بالإناء كأن لم يكن به شيء قبل ذلك، فينتقل الذهن من هذه الصورة إلىٰ معنىٰ النقاء والصفاء.

وكذلك قولها عنه:"لقد كان عند رسول الله ﷺ كزراع البكرة الأزهر"(٢) شبهته بنتاج البكرة الفَتِيّة من الإبل، وقولها: (الأزهر): كناية عن صفة البياض

(١) – بلاغات النساء ص٤٩

(٢) – السابق ص٥٢

المشرق، أي: الأبيض المشرق الوجه كأن له بريقا ونورا، وهو أحسن ألوان الرجال(١)، وفي التشبيه بولد الناقة الفتية استمداد من البيئة العربية التي عُدت فيها الناقة وسيلة النقل وحمل المتاع ومجلب الخيرات، فقد كانت الإبل أعز الأموال علىٰ العرب يفتخرون بحيازتها، والتشبيه وصف كاشف عن خصائص المشبه (سيدنا عثمان) من قوة وجلال وهيبة وشرف النسب.

وعندما قُتل "الحسين بن علي" وأُسرت النسوة والبقية من آل سيدنا محمد ﷺ وتوجهوا إلىٰ "يزيد"، فأمر برأس "الحسين" فوضعت في طست وأخذ ينكث ثناياه بقضيب شامتا، فلم تهب السيدة "زينب" ﷺ هذا الموقف الدامي بل توجهت إلىٰ "يزيد" بالنهر والزجر قائلة: " أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارىٰ أن بنا هوانا علىٰ الله وبك عليه كرامة"(٢) فنادته باسمه مجردا من نعوت العظمة والسلطان والإمرة، ونادته بنداء البعيد لتنبيهه وزجره وحثه؛ لفعله ما لا يُستصوب، فكأنه غافل ساهٍ، ثم شبهت هيئة توجيه "عمرو بن سعيد" ـ أمير الجيش الذي قتل "الحسين" ﷺ ـ بالنسوة إلىٰ "يزيد" بهيئة سوق الأسارىٰ، بجامع الهيئة الحاصلة من تعمد الانقياد لسائس مع تتابع وتخاذل وتخلُّفُ بعضهم عن بعض، وقد أبرز التمثيل ما يجده المسوق في نفسه من المرارة والذل والخزي، وقصد إلىٰ إخبار السامعين عند وقوعه في سمعهم حالة في نفوسهم شبيهة بالحالة التي يجدها الأسير عند سوقه

(١) – لسان العرب . مادة(زهر).

(٢)– بلاغات النساء ص٧١

لجلاده[1]، وتعبيرها بلفظة "نُساق ويُساق" استعارة للانقياد والاستيلاء والعسف، والتعبير بالمبني لما لم يُسم فاعله "نساق" مع أن السوق مما يُعالَج بالجارحة[2]،أي: يكون فيه دفع وزجر، وهذا يقتضي فاعلا يباشر السَّوْق والدفع، ولكنها تجاهلت ذكره وأسقطته رغم كونه واليا علىٰ "الكوفة" من قِبَل "يزيد"؛ لعدم اعتدادها به، وركزت علىٰ ما يجري مجرىٰ المفعول (جملة الحال): (كما يساق الأسارىٰ) فالشبه مأخوذ ما بين السوق وبين سوق الأسارىٰ، وبروز "كاف" التشبيه أفادت تقريب المعنىٰ وادعاءه علىٰ سبيل المشابهة والمجازفة، أما علىٰ سبيل التحقيق والقطع فلا[3]؛ لأن السيدة "زينب" ﷺ تغالط يزيد فيما كان منه وتنكره، وتدفع ظنه أن يتوهم أنه عزيز مكرَّم؛ ولذلك فارقت بين حاله وحالها بأسلوب الطباق "هوانا" و"كرامة".

وعندما خذل أهل الكوفة "الحسين" وقتله عسكر "يزيد" ولم يجد نصرة منهم كما وعدوه، وبكاه نساء الكوفة فارتجلت السيدة "أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب"ﷺ تعنّف أهل الكوفة علىٰ غدرهم قائلة:"يا أهل الكوفة، يا أهل الختر والخذل، لا فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ألا وهل

(١) - ينظر أسرار البلاغة. باب (الاشتراك في الصفة وفي مقتضىٰ الصفة، ومعنىٰ لفظ التأول) ص ٩٨

(٢) - ينظر شرح المفصل ٤/ ٢٩٥

(٣) - ينظر أسرار البلاغة. باب (الشبه العقلي المنتزع من جملة أمور) ص١٠٠

فيكم إلا الصلف والشنف، وملق الإماء، وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمرعىٰ علىٰ دمنة وكفضة علىٰ ملحودة؟"(١)

ارتفع صوت السيدة "أم كلثوم"ﷺ بنداء البعيد موقظة أهل الغدر والضلال داعية عليهم، مؤنبة لهم، متحسرة علىٰ فقد أبيها وأخيها؛ ولأنها تنطق عن حق أسكت كلامها أهل الباطل، فلم يعترضوها أو يردوا عليها، فعرّضت بهم، ذامة أفعالهم لنكثهم الأيمان، فهم لغلبة الهوىٰ وانعدام العقل والتدبير أصبحوا مضرب المثل في الحمق،كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها بعد شد فتله، إذ جعلتم أيمانكم وسيلة للغدر والمكر والخيانة، وتركتم النظر في العواقب، ووثقتم بمن لا تعرفون ولا تُخبرون (٢)، فشبهت قصتهم وحالهم بحال تلك المرأة ذات القصة المعروفة، ولم تكتف بالتمثيل بل عرفت الحال المشبه بها بالموصولية؛ لأن الحال الممثل بها معلومة النسبة إلىٰ هذه المرأة الحمقىٰ مشار إليها بحسب الذهن(٣)؛لاشتهارها بمضمون الصلة، والمخاطب يعرفها بكونها مثلا للحمق، فنقل التمثيل ما هو معلوم بالفكر إلىٰ صورة مشاهدة معروفة معاينة فكان آكد في النفس، واقتباس هذا المثل من القرءان الكريم؛ لعدم وفاء ألفاظها بالمعنىٰ التي تريده لعدم وجود نظيره، فلم تجد ألفاظا توصل مرادها إليهم وإلىٰ السامعين من بعدهم إلا نص

(١) – بلاغات النساء ص٧٥

(٢) ينظر الحمقىٰ والمغفلين. جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، شرحه: عبد الأمير مهنا، ص٣٤ وما بعدها، ط١، دار الفكر اللبناني ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م.

(٣)– ينظر المطول ص٧٤

القرءان العظيم، ولم تجد قصة أشهر وأدل علىٰ مرادها وأوضح من الإحالة علىٰ قصص القرءان وأمثاله" فتتحرك النفوس بما قد ارتسم فيها من صفة القصة الأولىٰ إلىٰ اعتقاد القصة الأخرىٰ علىٰ مثل تلك الصفة"[1]، ثم ترقت في ذمهم وهجائهم بقولها: "وهل فيكم إلا الصلف والشنف وملق الإماء، وغمز الأعداء؟" فقصرت صفات المجاوزة في الظرف والإدعاء، والبغض، والتهمة، والجبن، وملاقاة الإماء علىٰ أهل الكوفة، ولم تجعلها لغيرهم علىٰ سبيل المبالغة، قصر موصوف علىٰ صفة، قصرا ادعائيا طريقه النفي والإثبات؛ لأن أهل الكوفة ينكرون أن تكون صفاتهم علىٰ وفق ما ذكرت السيدة "أم كلثوم" ويشكون فيها، ولكن انفعالها وشعورها القوي بالحزن والخداع والخيانة جعلها لا ترىٰ فيهم غير هذه الصفات، ثم ترقت في الهجاء والإقذاع بأسلوب القصر مدمجا فيه التشبيه تقول: (وهل أنتم إلا كمرعىٰ علىٰ دمنة وكفضة علىٰ ملحودة؟) فقصرتهم علىٰ صفة السوء وعدم النفع، قصر موصوف علىٰ صفة، قصرا ادعائيا، فـ"الدمن": الأبوال والأبعار تكون وراء البيوت فإذا جاء عليه المطر أعشبت، قال ابن الرومي (المتقارب):

وَكَمْ بُقْعَةٍ خِلْتُهَا رَوْضَةً ... فَأَلْفَيْتُهَا دِمْنَةً مُعْشِبَه

فكنتُ حَسِبْتُ فَلَمَّا حَسِبْ ... تُ عَفَّىٰ الحِسَابُ علىٰ المَحْسَبَهْ

.....معيوب ونحوه قول زفر بن الحرث (الطويل)

(١) – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح:محمد الحبيب ابن الخوجة، ص١٩٠، ط٣، دار الغرب الإسلامي١٩٨٦م.

قَدْ يَنْبُتُ المَرْعَىٰ علىٰ دِمَنِ الثَّرَىٰ وتَبْقَىٰ حزَازاتُ النُّفُوس كما هِيا[1]

فشبهتهم بمرعىٰ علىٰ دمنة، وبفضة علىٰ ميتة، بجامع حسن المنظر وسوء المخبر وعدم الانتفاع في كل، تشبيها حسيا مقيدا، لتقرير صفة المشبه في ذهن السامع في صورة حسية مشاهدة، فلو جهدت في بيان حالهم المزرية وصفاتهم الشنيعة لا تستطيع أن تطبع في نفوسنا هذه الصورة التي طبعتها حين قرنتها بصورة المرعىٰ علىٰ الدمنة، والفضة علىٰ ملحودة، كما قال الشاعر:

في شـــجر السَّـــرْو منهم مثل لـــه رواء ومـــالـــه ثـــمـــر

امتازت النساء التي أمر "معاوية" بإيفادهن عليه بالجرأة، فكن ذوات قلب شديد ولسان حديد، وهنا أمر يدعو إلىٰ التساؤل، لماذا أمر معاوية بإيفاد هؤلاء النسوة عليه وهو عليم أنهن محبات لـ"علي" وآل البيت؟ ولماذا يطلب منهن الإفصاح عن شغفهن بحب "علي"-كرم الله وجهه- وكرههن له وهو محب سماع أجوبتهن؟ ولماذا كان يأمر لهن بالعطاء الجزيل أو يلبي طلباتهن؟ هل كان يسترضيهن أم كان يدفع عن نفسه عقاب الله جل جلاله أم كان محبا أن يشتهر عنه أنه حليم أم كان يعمل علىٰ إرساء دعائم ملكه وتوطيده بسلّ ضغائن النفوس؟ كل هذا محتمل وارد، فالمتتبع لكلام النساء الوافدات علىٰ "معاوية" يجد هذا واضحا، ومن هؤلاء الوافدات السيدة "أروىٰ بنت الحارث بنت عبد المطلب الهاشمية" دخلت عليه وهي عجوز، فسألها عن حالها فأجابت بالحقيقة التي يخاف الرجل أن يفصح بها

(١) ينظر التشبيهات. لأبي إسحاق ابن أبي عون الكاتب، تح:عبد المعين خان بتصرف، ص٣٩٦، ط٢، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة. سوريا ٢٠١٥م.

مما أسكت "معاوية" لقولها:" فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظا ونصيبا وقدرا، حتىٰ قبض الله نبيه ﷺ مغفورا ذنبه، مرفوعا درجته، شريفا عند الله مرضيا، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسىٰ -عليه السلام- من آل فرعون "يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم" وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هارون من موسىٰ- عليهما السلام- حيث يقول:" يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني"[1] انطلق جواب "أروىٰ" من موقف انفعالي يسيطر فيه حب سيدنا "علي" -كرم الله وجهه- وليس من موقف عقلي أو فكري، فهي في حضرة "معاوية" أمير المؤمنين وهذا يستدعي ضبط الانفعال وتحكيم العقل والتفكر قبل النطق ببنت شفة، ولكن المرأة انفصلت عن هذا الواقع المنافر لميلها النفسي فقالت: " فكنا أهل البيت" فاستحضرت ما مضي وثبت ثم انقطع بالفعل"كنا"، وكان يكفيها أن تعرف المسند إليه بضمير التكلم الحضوري، فيتعرف لدىٰ السامع ويتحدد عنه، ولكنها أبدلت منه مظهرا معرفا بالإضافة "أهل البيت" لبيان الضمير وإيضاحه، ورفع اللبس والتجوز أن يراد غيرهم، فأكدت الضمير وبينته بالبدل منه[2] إضافة إلىٰ إدخال الروع والمهابة في نفس السامع وتعظيم شأن المضاف؛ لينزل هذه المرأة المنزلة اللائقة بها لكونها من أهل البيت، ولكن ما استهلت به لم يدم طويلا فقد انتقل الرسولﷺ إلىٰ جوار ربه وحدثت الفتن، فتبدل الحال وتحولت سريعا (فصرنا أهل البيت) مكررة البدل لتوكيد

(١) - بلاغات النساء ص٨٢: ٨٣

(٢) - ينظر (باب البدل) شرح المفصل ٤/ ٢٦٢ وما بعدها.

هذه الصفة وتقريرها في نفوس من يريد بأهل البيت شرا، ولوم وعتاب علىٰ ما كان ينبغي أن لم يكن من الأمويين في حق بني هاشم، واستدعت مثلا من القرءان العظيم ليجسد مكانة أهل البيت من بني أمية فقالت: "فصرنا ... بمنزلة قوم موسىٰ" صورت العلاقة التي كانت بين الأمويون وبين أهل البيت عامة بعلاقة موسىٰ-عليه السلام- بآل فرعون، بجامع الصورة الحاصلة من البغض والشنئان المتمثل في ذبح الرجال وأسر النساء، ثم خصصت فذكرت علاقتهم بسيدنا علي-كرم الله وجهه- تفخيما وتعظيما له لما له من مكانة في قلوب أهل البيت فقالت:(وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا ..) فصورت العلاقة التي كانت بين الأمويون وبين سيدنا علي-كرم الله وجهه- بعلاقة سيدنا هارون ـ عليه السلام ـ من أخيه موسىٰ ـ عليه السلام ـ بعد مغادرته واستئمانه علىٰ القوم من بعده، بجامع الهيئة الحاصلة من إنبات بوادر الشقاق بعد التوادد والاتصال، فالمعنىٰ الذي تشعر به المرأة يتجمجم في صدرها، ولا تحسن العبارة عنه، ولا تريد تعليله، فاقتبست من البيان القرءاني العظيم وأسقطته علىٰ ردها وواقعها التي تعثرت فيه الحروف، وضاقت العبارات، واستبهمت الإشارات أن تصفه؛ لتزيد قناعة المخاطب بكلامها، وتقوىٰ حجتها، بحيث لا يجد سبيلا إلىٰ نقضها أو نقدها، كما أنها عدلت عن مجابهة "معاوية" بصريح الإساءة، فكانت في مأمن من استلال الضغائن وإثارة الأحقاد؛ ولذلك أسقط في يد "معاوية"، فسكت، ولم يرد جوابها مما اضطر رجاله من أمثال: "عمرو بن العاص" و"مروان بن الحكم" أن يدفعوا عنه ويتعرضوا للعجوز فأسكتتهم بحديد لسانها قائلة لمروان: "يا بني: أتتكلم؟ فوالله لأنت إلىٰ سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم،

وإنك لشبهه في زرقة عينيك، وحمرة شعرك، مع قصر قامته، وظاهر دمامته، ولقد رأيت الحكم، ماد القامة، ظاهر الأمة، سبط الشعر، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب"[1] نال "مروان" من عقل المرأة وشهادتها فأسكتته بغمزه في نسبه، وهو أشد ما يُهجا به العربي، فشبهت قرابة "الحكم" من "مروان" بقرابة الفرس الضامر من الأتان الحبلىٰ المنتفخة التي قرب ولادتها، بجامع انتفاء القرابة في كل، فالعرب تضرب المثل بالحمار للعي والجهل والبلادة، وتمدح الفرس الضامر لقوته وسرعته في الجري، وقد ورد كثيرا في شعرهم كقول المنخل اليشكري:

وَعَلَىٰ الجِيادِ المُضْمَرَا تِ فَوَارِسٌ مِثْلُ الصُّقُورِ[2]

وقول الممزق العبدي:

وقَدْ ضَمَرَتْ حَتَّىٰ الْتَقَىٰ مِنْ نُسُوعِهَا عُرَىٰ ذِي ثَلاثٍ لَمْ تَكُنْ قَبلُ تَلْتَقِي[3]

والتشبيه هنا ليس من إلحاق الناقص بالكامل قطعا، بل هو اللامشابهة، فجمع صورتين متباينتين وقرن بعضها ببعض ليتبين البون الشاسع بين الفرس الضامرة المستحسنة وبين الأتان المستقبحة، فهي تريد أن تقول: لاشبه بينك وبين الحكم من حيث الشكل والهيئة، وإذا كان كلامي خاطئا، فإن الفرس الضامر لا يشبه الأتان المقرب، فأثبتت دعواها واحتجت لها بدليل، وكان أسلوب القصر معوانا لها علىٰ تأكيد وتعيين مقصودها، وتوجيه ذهن المتلقي

(١) - بلاغات النساء ص٨٤

(٢) - الأصمعيات. الأصمعي، تح: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ص ٥٩، ط٥، بيروت.د.ت.

(٣) - الأصمعيات. ص١٦٥

إلىٰ قبوله دون غيره، فقصرت قرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب علىٰ مروان، قصر صفة علىٰ موصوف، طريقه النفي والاستثناء؛ لأن نسبة الشخص لغير أبيه مما ينكره المخاطب ويشك فيه؛ لعدم تيقنه منه، وخفائه عليه، فاستندت إلىٰ مقارنات شكلية ظاهرية ودعمتها بمثل حسي مرئي مدمج فيه أسلوب القصر لتسد سبل الطعن عليها؛ ولهذا وجهت "مروان" بأسلوب الأمر قائلة: "فاسأل أمك عما ذكرت لك، فإنها تخبرك بشأن أبيك إن صدقت"(١) متحدية له، متهكمة به؛ لظنه وتكذيبه كلامها، منبهة له أن الظن الذي قد كان منك ينبغي أن لا يكون؛ ولذلك احترست بـ(إن صدقت) فالأم تتوقىٰ أن تصارح ابنها الرجل بمثل هذا.

ثانيا: الاستعارة:

لم تكن الاستعارة حيلة تصويرية، أو تلاعبا بالألفاظ، أو مجرد نقل لفظ من معنىٰ إلىٰ آخر، بل شكلت طريقة تفكير النساء متمثلة في أجوبتهن المفعمة بالحزن علىٰ مفقود، أو الانتصار لفئة معينة والذب عنها، أو إثبات رأي يرأينه، وعكست رؤيتهن للأحداث، وطريقة التفكير فيها، وقد استخدمت السيدة عائشة ﵂ الاستعارة؛ لتعبر عن حزنها علىٰ فراق أبيها، والانتصار له من كارهيه بأقصىٰ قدر ممكن من الفعالية ببيان فضله ومنجزاته، وقد رأت أن التعبير المكشوف لا ينقل إلىٰ المتلقي إحساسها القوي المفعم بالحزن والفقد، فاندست في ثنايا مفردات اللغة بفكرها ووجدانها ليتمخض لسانها عن استعارات تخلق تشابهات جديدة بين مفردات اللغة وظفتها في

(١) -بلاغات النساء ص٨٤

الاستدلال والرد "من أتقن أصلا واحدًا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ووقف علىٰ كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به، أطلعه ذلك علىٰ كيفية نظم الدليل"(١)، واحتراسا من ظن التكلف أو التشدق فقد كانت الاستعارات تجري علىٰ لسان أم المؤمنين "عائشة" فصيحة عذبة رائقة، فقد نهلت من بيان النبوة تسع سنوات متواصلة، وارتوت مِن مَعْدِن حكمة مَن لا ينطق عن الهوىٰ، ترد علىٰ من نال من أبيها راثية قائلة: "وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجىٰ النشيج، فانصفقت عليه نسوان أهل مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزؤون به "والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون" وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قِسِيَّها، وفَوَّقَت إليه سهامها، فامتثلوه غرضا، فما فلّوا له صَفَاة، ولا قصفوا له قناة، ومر علىٰ سيسائه حتىٰ إذا ضرب الدين بجرانه، وأرست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا من كل فرقة أرسالا وأشتاتا اختار الله لنبيه صلىٰ الله عليه ما عنده، فلما قبض رسول الله ﷺ ضرب الشيطان برواقه، وشد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، وألقىٰ بركبه، واضطرب حبل الدين والإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وعاد مبرمه أنكاسا"(٢)

وصفت السيدة "عائشة" فضائل أبيها، فآثرت علاقته بربه أولا، فوصفته بالخشوع والخشية (وقيذ الجوانح، شجىٰ النشيج)، فاستعارت الوقذ:

---

(١)- مفتاح العلوم. يوسف بن أبي بكر السكاكي، تح: حمدي محمدي قابيل، ص٣٧٤،المكتبة التوفيقية.د.ت.

(٢)- بلاغات النساء ص٣٧: ٣٩

للحزن، بجامع السكون والإثخان في كل، علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، فالحزن جُسم وأصبح إنسانا متخيلا، صارع الصِّدِّيق وأوجعه ضربا حتىٰ أسكنه وأثخنه، فبلغ منه مبلغا يمنعه من انتهاك ما لا يحل وما لا يجمل[1]، وإطلاق وقذ الجوانح علىٰ حزن القلب مجازا مرسلا، علاقته المجاورة؛ لأن الجوانح تحوي القلب وتحيط به، والقلب يجاورها، وبالغت في وصف الحزن المهيمن علىٰ أبيها حيث جعلت النشيج محزونا بقرينة إضافة الشجو إليه علىٰ سبيل المجاز العقلي، علاقته المفعولية، فالصَّدِّيق مشجوّ، بسبب شدة خشيته وضراعته لربه ﷻ، وقد أخبرت السنة المطهرة بهذا حينما أثقل المرض جسد نبينا الشريف ﷺ وأمر السيدة عائشة أن تخبر أباها أن يصلي بالناس "حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ ، عَنْ زَائِدَةَ ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ، قَالَ : مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، فَقَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ قَالَتْ عَائِشَةُ : إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ، فَقَالَ: مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ ، فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2]، قررت أمُّنا "عائشة"حقائق معروفة عن أبيها أقرتها السُّنة، وهذه الحقائق ذاتية لا تضير أحدا، ولكنها قوبلت بمفارقة مخالفة للتوقعات "وأكبرت ذلك

(١) – ينظر لسان العرب. مادة (وقذ).

(٢)– صحيح البخاري.عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ص١١٨، كتاب (الأذان)، باب (أهل العلم والفضل أحق بالإمامة)، حديث رقم: ٦٧٨، دار أخبار اليوم.

رجالات قريش فحنت له قِسِيَّها، وفَوَّقَت إليه سهامها، فامتثلوه غرضا"، أفصح جمع الجمع "رجالات" عن المبالغة في التحزب والاحتشاد والاجتماع للنظر فيما يقوم به "الصديق" من صلاة وبكاء، فلم يكن الاجتماع لرجلين أو ثلاثة بل بولغ في العدد فجمعوا الجمع للمبالغة في عدد الرجال وكأنهم صنوف شتىٰ اجتمعت للنظر في أمره، ولم يكتفوا بالاجتماع فيما بينهم، وكفّ نسائهم عن التطلع إليه بل وجهوا إليه اللوم، فـ"القسي، والسهام" استعارة تصريحية أصلية لحديد الكلام، والاتهامات التي وجهت للصّدِّيق، و"امتثلوه غرضا" كناية عن نسبة، فالمعنىٰ علىٰ تأكيد إثبات توجيه التهم إلىٰ الصديق، ومواجهته بالعداء، وهو منها براء، أي: إذا كان من هؤلاء الرجالات إنحناء الأقواس، وتصويب السهام نحو الصديق، فيلزم منه المصارحة والمواجهة والمكاشفة بالعداء، وتوزعت أدوات المعاني (ما ولا) مُنسقة وفق ما يراد تحقيقا للتأثير المنشود، والاستحواذ علىٰ المتلقي بخلق جمل تركيبية متوازنة موسيقيا، فافتتحت بها جملتين معطوفتين (فما فلّوا له صَفَاة، ولا قصفوا له قناة) تكرار النفي به ميل شديد إلىٰ تأكيد تميز الصدِّيق وتمرده علىٰ الموروث الثابت من العقائد الضالة، فابتدأت الجمل بالسلب والنفي بـ(ما) التي لها حق الصدارة ثم عطفت عليها جملة منفية أخرىٰ (ولا قصفوا..) لتأكيد النفي، وكناية عن إثبات ثبات الصديق علىٰ دينه، وقوته فيه، فلم ينله أحدهم بسوء، ثم تتوالىٰ الاستعارت التمثيلية تترىٰ يتبع بعضها بعضا (ومر علىٰ سيسائه حتىٰ إذا ضرب الدين بجرانه، وأرست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا من كل فرقة أرسالا وأشتاتا) فصورت ثبات الصديق علىٰ قوته في الدين بصورة المستقر علىٰ وسط ظهر الدابة، بجامع الحال الحاصل

من الاستواء علىٰ ما لا يثبت علىٰ مثله، ثم مثلت صورة الحقَّ إذا استقام وقَرَّ في قَراره، بصورة بروك البعير ومدّ عنُقَه علىٰ الأَرض ليستريح، بجامع الصورة الحاصلة من الثبات علىٰ هيئة صحيحة مخصوصة بعد كدّ وتعب، وقولها:(وأرست أوتاده) استعارة تمثيلية أيضا، شبهت حال استقرار الدين وتمكنه في النفوس، بحال الذي نصب خيمة ومكنها بإرساء أعمدتها الثابتة في وسط الخباء لتتمكن في الأرض، وترّقت فختمت بصورة كلية جامعة، فشبهت حال اعتناق الجم الغفير من الناس للدين بدخول البيت، بجامع الحلول والاستقرار في كل، علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، حذف فيها المشبه به وأتىٰ بشيء من لوازمه وهو الدخول، فاستقرار الدين، واستقامته في النفوس، وثباته وتمكينه فيها مهد لدخول الأفواج فيه من كل حدب وصوب فرادىٰ وجماعات، وبهذا كانت الاستعارتان ممهدتين لهذه الاستعارة الأخيرة التي جاءت نتيجة صدق لسابقتيها؛ لاستنباطها من القرآن العظيم، فالدين الذي يرضىٰ به العقلاء، ويسير علىٰ سنته العارفون بالأديان السماوية المنزلة، وعليه جرت الأحكام الشرعية، لابد أن يكون معنىٰ صريحا يشهد العقل له بالصحة، ويتفق العقلاء علىٰ الأخذ به، ولما ثبت وتمكن في القلوب، وانتشر في القبائل دخلته أفواج الناس، وهكذا كان الحال وقت حياتهﷺ، ثم انقلبت الأحوال وتبدلت بموته، **فعالم الثبات علىٰ الدين والفداء لأجله انحرف مساره يمينا وشمالا، ورجع القهقري، وظهرت قوة أخرىٰ مفارقة مسيطرة تستهدف التصادم، وتنشر التوتر، هي قوىٰ الشيطان التي مُثلت أفعالها في استعارات تمثيلية أيضا مقصودة بوعي من قِبل السيدة "عائشة" تحاول أن تنقل مشاعرها بخصوص مرحلة صعبة علىٰ وجه التحديد في حياة**

الأمة الإسلامية، تقول: "فلما قبض رسول الله ﷺ ، ضرب الشيطان برواقه، وشد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، وألقىٰ بركبه، واضطرب حبل الدين والإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وعادمبرمه أنكاسا" تعددت الصور الاستعارية الجزئية لترسم صورة كبيرة لطغيان الشيطان وبسط سيطرته، أولها: "ضرب الشيطان برواقه " شبه هيئة استقرار الشيطان بالموضع واطمئنانه به، بهيئة ضرب الفسطاط والقُبَّة، وتهيئة موضع الجلوس، بجامع الهيئة الحاصلة من الاستعداد والتأهب وإعداد العُدة للبقاء بالمكان طويلا، ثم تقول:" وشد طنبه" شبه هيئة الإعداد الجيد للرواق وتمكين استقراره وتدعيمه بالأرض ليثبت طويلا، بهيئة شد الحبال الطوال بين أرض الخيمة وطرائقها ونواحيها، بجامع الهيئة الحاصلة من الانكباب علىٰ استجماع أدوات البقاء والتمكين، ونسي الشيطان أنه لابد أن يأتي وقت لحل هذه الأطناب كما تقول العرب: "يا حابل اذكر حلاًّ"، أي: يا من يشد الحبل اذكر وقت حله، ولكنه تمكن من النفوس وقبع في أعماقها؛ ولذلك فإنه "ونصب حبائله" شبه هيئة التفنن في الاستعداد للمكر والوسوسة والفتن بوسائل شتىٰ، بهيئة نصب الحبائل والمصايد والأشراك للإيقاع بالفرائس، بجامع الهيئة الحاصلة من الحياطة الشاملة والاستعداد التام للإيقاع بالفرائس، وبعد أن أعد الشيطان عدته، ومكن أسباب بقائه، جاء بجيشه وذريته ليدعم امبراطورية البقاء "وأجلب بخيله ورجله" شبه هيئة غزو الشيطان لبني ءادم وجمعه كل وسائل الفتنة والوسوسة لإضلالهم، بهيئة قائد يغزو قوما بجيش عظيم من فرسان ورجالة، ثم استقر القائد وانتصر فحط رحاله"ألقىٰ بركبه" فشبه حال قائد الجيش المنتصر(الشيطان) بعد الفوز

علىٰ خصمه فيخلد إلىٰ الراحة حاطا رحاله، بهيئة من ألقىٰ بركبه، بجامع الهيئة الحاصلة من الاطمئنان الذي يقتضي حط الرحال ولزوم المكان، فالاستعارات الجزئية كونت صورة شاملة دقيقة مستوعبة لكل جزئيات الصورة الكلية، عبرت عن غزو الشيطان وتملكه ونصبه لأدوات الدفاع وأشراك الإغواء، وفي المقابل هدوء تام وسكينة من أصحاب الأرض التي يغزو عليها الشيطان ويستعد للإغراء والتسويل؛ لشغلهم بأنفسهم عما يكاد لهم، فنتج عن ذلك "واضطرب حبل الدين والإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وعاد مبرمه أنكاسا" شبهت هيئة تفرقهم وبعدهم عن دين الله ووصاياه وعهوده، بهيئة تخلي جماعة عن حبل ألقي إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلىٰ الإسلام والدين قرينة هذا التمثيل، ويجوز أن يستعار الاضطراب لاختلاف كلمة المسلمين وتشتت أمرهم، ويستعار الحبل للعهود والمواثيق، ويكون كل من الاستعارتين ترشيحا للأخرىٰ، وامتدت الاستعارة لتصف عهد الإسلام وأهله (ومرج عهده، وماج أهله) فالمرج استعارة لاضطراب العهود وقلة الوفاء بها، واختلاطها، والتباس المخرج فيها، وعندما تضل العهود، ويختلط أمر الدين، ويعم الفساد فلا وازع يردع الفرد وينهاه عن ارتكاب الآثام؛ فلذلك (ماج أهله) استعار الموج لاضطراب الناس وضياع أمورهم وعدم إحكامها، استعارة تصريحية تبعية أيضا، ولاشك أن لهذه الاستعارات المتتابعة قيمة تأثيرية أبعد، والتفصيل لجزئيات الصور أصبح يثير في نفس المتلقي تداعيات أعمق لفساد الدين واضطراب أهله بعد موت الرسولﷺ خاصة أن السيدة "عائشة" استعانت بالصور التمثيلية والجمع بينها في سياق واحد لـ"توحي بإشارات ودلالات

أكثر من تلك التي تنبع من كل استعارة علىٰ حدة"[1]، واستمدت صورها من البيئة الصحراوية المحيطة بها لتصور أحداث الفتنة التي ماجت بعد موت الرسولﷺ ، وكان نفسها طويلا فاستقصت أجزاء الصورة جزءا جزءا لتعبر عن صورة كلية لهوان المسلمين وانقلابهم علىٰ أعقابهم.

ومن الخطب التي ألجمت ألسنة الناس خطبة السيدة "حفصة" بعد مقتل أبيها، تقول:".. فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم، وارعوىٰ إلىٰ صنيعهم، ورب في الفتنة لهم، ونصب حبائله لختلهم، حتىٰ همّ عدو الله بإحياء البدعة، ونبش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثوره، وإراقة الدماء، وإباحة الحمىٰ، وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها، فأضرىٰ وهاج وتوغر وثار غضبا لله ونصرة لدين الله"[2] افتتحت السيدة "حفصة" بالتعميم (فكل العجب) معللة لما يرد بعد هذا العجب من استعارات تهكمية متتالية نبهت علىٰ ضلال القوم وغفلتهم، فقولها:"زين الشيطان أفعالهم" استعارت التزيين للتضليل والخداع، استعارة تصريحية تبعية تهكمية، فاستُخدم لفظ المدح (زين) في مقام الذم والإهانة، فالتزيين تحسين، وقتل الفاروق ﷺ ليس حسنة يمدحون عليها، ولكنها تتعجب من هؤلاء القوم، وتستخف بعقولهم، وقولها:(وارعوىٰ إلىٰ صنيعهم) استعارت الارعواء للميل والنزوع، فأفعالهم بلغت من الفحش مبلغا جعلت الشيطان

(١) – الاستعارة في الخطاب. إيلينا سيمينو، ترجمة : عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، ص١١٥، ط١، العدد٢٠٠٠، المركز القومي للترجمة ٢٠١٣م.

(٢) – بلاغات النساء ص ٧٩

رأس المكر والخبث ينزع إليها ويُبقي عليها، استعارة تصريحية تبعية تهكمية أيضا، للمبالغة في انحرافهم عن جادة الحق والطريق المستقيم، وقولها:(وربّ في الفتنة لهم) استعار الرب للزيادة ودوام الفعل(الفتنة)، استعارة تصريحية تبعية تهكمية، فأصبح هؤلاء القوم الذين نكرتهم السيدة "حفصة" ولم تصرح بذكرهم لكون الضلال من قوميتهم شُهروا به، ويعملون بمقتضاه، ملهمي الشيطان، وأصبح الشيطان ملازما لهم يتفنن في فتنتهم، ولم تقتصر أفعال الشيطان علىٰ زيادة فتنتهم بل باشر باقي أعمال الإفساد والتضليل (بإحياء البدعة، ونبش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه) استعير الإحياء للبعث والانتشار، علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، للمبالغة في انتشار البدع، فتجسمت حتىٰ صارت حية تتحرك وتنشر الضلال، ويجوز أن يكون الإحياء استعارة مكنية فشخص البدعة وجعل لها حياة، ولكن التصريحية أليق بالمقام، وقولها: (نبش الفتنة) استعير النبش للإعادة والتجديد علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، فالفتنة وهي: اختلاف الناس بالآراء، أو الكفر، لا تنبش وإنما تعاد علىٰ مسامع الناس لتختل عقيدتهم، ويتجدد العهد لها عندهم، وقولها: (وتجديد الجور بعد دروسه) استعير التجديد للإعادة والاستئناف، والدروس للمحو والعفاء، استعارة تصريحية أصلية، فالجور معنىً من المعاني ولكنه جُسد فأصبح بناء اندرس وتجدد، إنها مفارقة واقعة بين ما نشأ عليه المسلمون في عصر النبوة وبين ما وصلوا إليه بعد مماته، مما يجعل الواقع الموضوعي أقوىٰ بكثير من القوىٰ النفسية والتكوين الديني والموروث الأخلاقي الذي ورثوه عن عهد النبوة، فالمسلمون الذين نصروا الله ورسولهﷺ كانوا يرفضون الخنوع والذلة

والنفاق، أصبح منهم وقاد الفتنة، وبعثها ذميمة، حتىٰ يحظوا بالقربىٰ من الخلفاء الجدد، ويتزلفوا إلىٰ المناصب، ليكون "الفاروق"ﷺ قلعة صامدة رغم ما يحيط به من فتن ومقاومات (فأضرىٰ وهاج وتوغر وثار غضبا لله ونصرة لدين الله) جمعت الواو بين أربعة جمل وكأن كل واحدة منها تقوم برأسها وتستقل عن الأخرىٰ، فالفروق دقيقة بين معاني الجمل فـ(أضرىٰ) استعارة للهج وعدم الصبر، و(هاج) استعارة للثأر لمشقة أو ضرر، و(توغر) استعارة للاحتراق من شدة الغيظ، و(ثار) استعارة لهياج الغضب، لبسط معنىٰ الثورة وإبرازه، وتعديد مظاهر ثورة "الفاروق" مع تلاحم الكلم بعضه ببعض، وحسن نسقه، ولولا فصاحة المتكلمة لما تمكن هذا النسق هذا التمكن[1]، ولئلا يظن بأبيها الاندفاع والشدة والتهور عللت بذكر المفعول لأجله (غضبا لله ونصرة لدين الله) فالغرض بيان سبب الضراوة والهياج والوغر والثورة، لا بيان الأفعال نفسها، وعبرت بالمظهر في موضع المضمر (ونصرة لدين الله) وكان يمكنها أن تقول: لدينه؛ لزيادة تمكين المفعول[2]، فالإظهار يناسب تعظيم اسم الجلالة وإفراده بالغضب والنصرة لأجله؛ لأن المقام مقام تقرير سبب الغضب والنصرة؛ لئلا يُغفل عن كون الغضب والنصرة لله ولدينه، وردا لتوهم كونهما لغيره تعالىٰ.

(١) – ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق، تح: محمد محي الدين، ١/ ١٣٠، دار الجيل .بيروت.د.ت.

(٢) – ينظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح. ابن يعقوب المغربي، ١/ ٤٥٧ وما بعدها، دار الإرشاد الإسلامي.د.ت.

وفدت "بكارة الهلالية" علىٰ "معاوية" بعد أن كبرت سنها، وكانت ممن تعين عليه يوم "صفين"، وكان عنده "مروان بن الحكم"، و"عمرو بن العاص"، و"سعيد" وذكر كل منهم ما كانت تتمثل به "بكارة" من الشعر تستنهض به جيش "علي"- كرم الله وجهه- ضد "معاوية" فلما سكتوا قالت: "نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني، فقصر محجني[1]، وكثر عجبي، وعشي بصري، وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب، فامض لشأنك فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين"[2] لم تخش السيدة العجوز بطش "معاوية" ومحاولة مَنْ كانوا عنده للإيقاع بها، فردت عليهم بجرأة غير متهيبة للموقف، مسكتة لهم: "نبحتني كلابك واعتورتني": فاستعير النبح للشتم، والكلاب لجلساء معاوية، ويجوز أن تكون استعارة تمثيلية، فشبه هيئة تعاون جلساء "معاوية" علىٰ "بكارة" وتناوبهم علىٰ النيل منها كلما مضىٰ واحد خلفه آخر، بهيئة اجتماع الكلاب علىٰ فريسة وتناوبهم عليها، فكلما أمسك واحد جذبها آخر، بجامع الهيئة الحاصلة من التناوب والاعتوار علىٰ واحد يتنازعونه يمينا ويسارا، وتبدو حكمة المرأة وكياستها في ندائها لـ"معاوية" ونعتها له بـ"أمير المؤمنين"، رغم تحريضها عليه في الأبيات التي ذكرها الجلساء، ومنها:

أترىٰ ابن هند للخلافة مالكا هيهات ذاك وما أراد بعيدُ

(١) المحجن: عصا المعوجة في طرفها عقافة. لسان العرب مادة (حجن).

(٢) – بلاغات النساء ص ٩٤

شعرت المرأة حينها بالتمزق الداخلي نتيجة الإحساس ببعض التناقضات من كبر سنها وضعفها، وتولي "معاوية" الخلافة، نحن أمام امرأة يائسة مطحونة، عركتها الحوادث والأيام، تبحث عن مهرب تلجأ إليه من الإحساس بالضعف والتمزق، وأنها لم يعد لها دور في المجتمع فتوسلت بـ"أمير المؤمنين"، ولم تناديه باسمه، بل نادته بنعته الوظيفي خضوعا لإمرته وأنه المُؤمَّل في هذا الوقت بأن يلجأ إليه، ثم سردت علل ضعفها " فقصر محجني" كناية عن عجزها عن طرد كلابه، و"كثر عجبي" كناية عن عدم اعتيادها لما تراه من التطاول عليها، "وعشي بصري" كناية عن تغافلها وتجاهلها للجلساء كأنها لم ترهم، ثم أقدمت في جرأة معلنة عن ذاتها وموقفها عبر ضمير التكلم (أنا) ففاعلية القول تتمركز فيها، ولا يتوهم غيرها قائلا، ثم اعترضت بأسلوب القسم (والله قائلة ما قالوا) لتوكيد إثبات القول إليها دون خوف أو تورية، ثم أكدت ذلك بتذييل يجري مجرىٰ المثل (لا أدفع ذلك بتكذيب)، هذا الجواب المفتتح بالتكلم (أنا) يباغت المتلقي ويفجأه، فقد بدأت المرأة جوابها بذكر ضعفها، ثم تعلن في قوة وجرأة أنها قائلة ما قاله الجلساء علىٰ مسمع من "معاوية" دون خوف أو لجاجة ارتفعت معها نبرة الحديث الانفعالية أنتجت الرد حين انتهىٰ الجواب[1]؛ لبيان رؤيتها في أحقية سيدنا "علي" ـ كرم الله وجهه بالخلافة وإقناع المتلقي بذلك؛

(١) – ينظر السرد الروائي العربي قراءة في نصوص دالة.د. مدحت الجيار، ص٣٠٥ بتصرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.

ولذلك أنهت جوابها بقولها: (فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين) وأرادت "عليًّا" كرم الله وجهه مشاكلة لندائها "معاوية" بهذا الوصف.

وعندما وفدت "أم الخير" علىٰ "معاوية" وسألها عن رأيها في بعض الصحابة واحدا تلو الآخر وهي تجيب، ولما ضاق صدرها من سؤالاته قالت "قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا، لا تدعني كرجيع الصبيغ يعرك في المركن"[1] نادته بنداء القريب لقرب مرتبته تنزيلا للأمر العقلي منزلة الحسي[2] فكأنه لقرب درجته وضعة محله عندهم قريب المسافة فيسهل الوصول إليه تنبيها إياه وردعا له ليكف عن أسئلته، ثم أعقبت باستعارة تمثيلية تكشف عن أثر تردد الأسئلة في نفسها وما تتركه من شعور سيئ، فشبهت الحال الحاصل من تناوب الأسئلة من "معاوية" لها مرة بعد أخرىٰ ومحاولة إحراجها، بالحال الحاصل من تكرار دلك الثوب المصبوغ في إناء يتردد فيه الماء فيستخرج صبغه مرة بعد أخرىٰ، بجامع الحال الحاصل من معاودة الشيء مرة بعد مرة علىٰ كره، فيُترك الثوب باهتا لكثرة الدلك والعرك، وكذلك فهي امرأة كبيرة وهذه المحاورات والأسئلة المتعاقبة تجهدها وتشعرها بالأسىٰ علىٰ أهل بيت رسول ﷺ، والحزن لفراقهم وقتلهم بطريقة شنعاء تجلب المرار؛ ولذلك نهته عن الاستمرار في استجوابها.

وقد يلجأ المتكلم إلىٰ المثل كي يبرئ نفسه من اللوم والذنب في مواقف العتاب والمؤاخذة، ومواجهة الخصم بما يدينه، فيُشعر الملوم أنها قضية

(١) – بلاغات النساء ص ٩٩

(٢) – ينظر المطول ص ٧٨

عامة ورأي عام وبذلك يأمن تبعات قوله، وقد حدث أن "عبد الله بن الزبير" ارتقىٰ المنبر فخطب الجمعة فنظرت إليه الجمانة بنت المهاجر وقالت" أيا نقار انقر يا نقار، أما والله لو كان فوقه نجيب من بني أمية أو صقر من بني مخزوم لقال المنبر: طيق طيق قال: فأنمىٰ كلامها إلىٰ عبد الله بن الزبير فبعث إليها فأتي بها فقال لها: ما الذي بلغني عنك يا لكاع؟ قالت: الحق أبلغت يا أمير المؤمنين، قال: فما حملك علىٰ ذلك؟ قالت: لا تعدم الحسناء ذاما، والساخط ليس براض ومع ذلك فما عدوت فيما قلت لك أن نسبتك الىٰ التواضع والدين، وعدوك الىٰ الخيلاء والطمع، ولئن ذاقوا وبال أمرهم، لتحمدن عاقبة شأنك، وليس من قال فكذب كمن حدث فصدق"[1] عرّضت "الجمانة" بـ"ابن الزبير"، بقولها: (انقر يا نقار) أي: يراجع في كلامه فلا يقيمه، وليس فصيحا ذرب اللسان، فلا يستقيم علىٰ صواب، ولسانه مضطرب في فمه، وصوته مزعج، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب[2]، فواجهها "ابن الزبير" بقولها فلم تنكره، وردت قائلة: (الحقُّ أُبلغت يا أمير المؤمنين) فقدمت "الحق" علىٰ الجملة الفعلية (أبلغت) لتقرير القول المُبلَّغ به عنها، وتأكيده في نفس "ابن الزبير" وتمكينه، وإبلاغه قصدها إليه بما في نفسها من الصفة[3]، وأنها أرادته هو بهذا القول، وعندما سألها عن السبب

(١)- بلاغات النساء ص ١٠٢

(٢) - قول عمر " أما في المعاريض مندوحة عن الكذب". الأدب المفرد. محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٢٨، رقم (٨٨٤). المطبعة السلفية١٣٧٥هـ.

(٣) - ينظر دلائل الإعجاز ص ١٢٩

الدافع لهذا القول أجابت: (لا تعدم الحسناء ذاما، والساخط ليس براض) فامتثلت بهذه الأمثال لتنجو من اللوم، وتبرز جوابها في معرض الحقائق المبرأة من الكذب، فعدلت بالجواب "عن الإقناع إلىٰ التصديق"[1]، فأوردت المثل التي استعارته لوصفه في صورة خبرية "لا تعدم الحسناء ذاما" فالحسن أمر ذاتي ثابت، وهو سبب للشنئان والبغض من البعض، ولما كان"ابن الزبير" محمود السيرة، نقي الإزار، مبشرا بالجنة كثر حساده وشانئوه، فنمّ الجواب عن امرأة محنكة متدربة تستميل "ابن الزبير" وتستلطفه بتزكيته ووتقريظه، فشبهت الحال الحاصل من النيل من شخص "ابن الزبير" وذم بيانه، وتشويه صورته، بالحال الحاصل من بغض الحساد للمرأة الحسناء بإنكار حسنها ومحاولة تقبيحها، استعارة تمثيلية، وكذلك قولها: "والساخط ليس براض" استعارة المثل للحال؛ لأنه مما يتلبس به الشخص مما هو غير ذاتي له ولا لازم[2]، فالسخط قد ينقلب إلىٰ رضا، فشبهت الحال الحاصل من كرهها "ابن الزبير" كرها متمثلا في كره سماع خطبته، وكره قبيلته، وكره خلافته، بالحال الحاصل من الشخص الساخط الذي يتصيد الأخطاء ويقلب الحقائق؛ لأنه غير راض، ثم أكملت إقناعها إياه بالمقارنة بين حاله وحال عدوه موظفة المقابلة لإبراز المفارقة بينهما "فما عدوت فيما قلت لك أن نسبتك الىٰ التواضع والدين، وعدوك الىٰ الخيلاء والطمع، ولئن ذاقوا وبال أمرهم، لتحمدن عاقبة شأنك"، ثم أسلّت سخيمته،

(١) – ينظر منهاج البلغاء ص ٦٢

(٢) – ينظر البرهان في علوم القرآن ص ٣٢٨

وأفلّت غضبه قائلة: (وليس من قال فكذب كمن حدث فصدق) استعارة تمثيلية لبيان حال أقوالهم التي تحتمل الصدق والكذب وحديث "ابن الزبير" الصدق، فالاستعارة حددت مقادير أقوالهم ومنزلتها، وفارقت بينها وبين حديث "ابن الزبير" الذي له شأن، والاتكاء علىٰ مفردات (التواضع، والدين، والصدق) بقصد ووعي لكي تحاجج حول نقطة معينة تحدث لها تأثيرا معينا علىٰ السامع، هذه النقطة هي أخلاق المسلم العربي التي لا يرضىٰ بها بديلا، وتكفيه شرفا أن توجد فيه وإن لم ينسب إلىٰ الجاه والسلطان، وقد كانت المرأة من الفطنة وهي تخاطب ابن حواري رسول الله ﷺ فاتكأت علىٰ الصفات الأخلاقية، والفوز الأخروي بالجنة تحقيقا لرضاه واستمالته ودفع العقاب.

الفصل الثالث: المحسنات البديعية

أولا: السجع:

من الفنون البلاغية التي شكلت سمة مميزة لبلاغات النساء السجع ، فقد ورد طبعيا غير متكلف ولا مجتلبا لتحسيين الألفاظ وتزيينها، ولكن بروزه وشيوعه في خطبهن يبرز خصيصة نفسية متعلقة بهن وهي الميل إلىٰ التأنق والزينة، كما أن العاطفة الجياشة لديهن تدفع الألفاظ دفعا، فتتكرر وتتتابع خاصة إذا كن يطالبن بحق أو يبدين رأيهن، فتنثال الألفاظ متتابعة موزونة مطردة تترىٰ وراء بعضها؛ لربط أجزاء النص، وكلما كانت موزونة مقفاة كان جرسها أوقع في سمع وعقل المتلقي فيرعىٰ انتباهه لما يلقىٰ إليه لقرب الفواصل مما يجعلها أوقع جرسا وأقوىٰ، ودل علىٰ مقدرة بيانية "لأن المعنىٰ إذا صيغ بألفاظ قليلة عسر مواطأة السجع فيه"(١)، ومن أمثلة السجع قول السيدة "عائشة" عن والدها: "ذاك والله حصن منيف وظل مديد"(٢)، فالفاصلة متساوية الوزن دون التقفية، فمقام الفخر والإجلال يناسبه صيغة المبالغة (فعيل)، ويناسبه تكرار حرف (الدال) في(مديد)، وهو حرف مجهور شديد يقلقل إذا سُكن، يحدث انفجارا فمويا، وهو مناسب لإحاطة الصديق ﷺ جميع رعيته بالرعاية والحماية.

ومما ورد من خطبة السيدة "عائشة" حين بلغها أن ناسا يسبون أباها فقالت: " وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجىٰ النشيج، فانصفقت عليه نسوان أهل مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزءون به {اللهُ

(١)– المطول. سعد الدين التفتازاني، ص ٤٥٤ ، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

(٢) – بلاغات النساءص٣٥.

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ، وأكبرت ذلك رجالات قريش فحَنَتْ له قسيِّها، وفوّقت إليه سهامها، فامتثلوه غرضا، فما فلُّوا له صَفَاة، ولا قصفوا له قناة، ومرّ علىٰ سِيسَائه[1] حتىٰ إذا ضرب الدين بجِرانِه[2] وأرست أوتادُهُ ودخل الناس فيه أفواجا من كل فرقة أرسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيه صلىٰ الله عليه ما عنده، فلما قبض رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ضرب الشيطان برُوَاقِهِ، وشدَّ طُنُبَهُ، ونصب حبائلَهُ، وأجلب بخيله ورجْلِهِ، وألقىٰ بركْبِهِ، واضطرب حبل الدين والإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وعاد مُبْرَمُهُ أنكَاسًا"[3] تنوعت قوافي الفواصل في هذا النص النثري، ووردت بعض القرائن متوازنة كقوله: (فما فلُّوا له صَفَاة، ولا قصفوا له قناة) و(أجلب بخيله ورجْلِهِ، وألقىٰ بركْبِهِ) و(ومرج عهده، وماج أهله) وتساوت الأوزان (أوتادُهُ، أفواجا، أرسالا وأشتاتا) وهذا يدل علىٰ براعة في القول وعدم التعمد للسجع؛ لأن السيدة عائشة –رضي الله عنها– أرادت أن تدفع عن أبيها ما اتُّهم به، وترسخ تقواه وورعه ونضاله من أجل الحفاظ علىٰ الدين ونصرته في عقول السامعين، فلزمت سجية الطبع، وكشفت عن مرادها بذكر حقائق معلومة، ولم تلجأ لتزويق أو تنميق؛ ولذلك يطرد السجع بل تكررت بعض الأوزان التي أعطت خطابها قعقعة ورنين موسيقي تصغىٰ إليه أفئدة المشركين والمنافقين، فلم تأبه لسجع أو تزييف أو تمويه.

(١) – سيسائه: عادته وطبعه. لسان العرب مادة(سيس).

(٢) – جرانه: أي ثبت واستقر لسان العرب مادة(جرن).

(٣) – بلاغات النساء ٣٦: ٣٧

وقد رأت "عائشة" ﵂ا رجلا متماوتا فقالت: "ما هذا؟ فقالوا: زاهد قالت: كان عمر بن الخطاب زاهدا، وكان إذا قال أسمع، وإذا مشىٰ أسرع وإذا ضرب في ذات الله أوجع"[1] هذا القول البليغ الموجز جاء السجع فيه سمحا عفو الخاطر، استدعاه المعنىٰ، فالقول يُلقىٰ ليُسمع، ولو قالت: (أرعد أو جهر) مكان (أسمع) لكن ذلك ذما للفاروق ﵁ فأرادت الاعتدال وبلوغ القصد، ولو قالت: (تبختر أو عجّل) مكان (أسرع) لكان ذما أيضا، فالتبختر كِبر، والعجلة: التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة، أما السرعة: فالتقدم فيما ينبغي أن يتقدم فيه وهي محمودة[2]، وقولها: (أوجع) فالغرض من الضرب الإيلام والعقاب؛ ولذلك احترست بقولها: (في ذات الله) لتدفع عنه البطش والظلم والجور، فشملت بهذا التقسيم ما ينبي عن قوة البدن وصحته.

ودخلت "عائشة" علىٰ أبيها في مرضه الذي مات فيه فقالت:" يا أبت اعهد إلىٰ حامتك[3]، وأنفذ رأيك في سامتك[4]، وانقل من دار جهازك إلىٰ دار مقامك، إنك محضور متصل بقلبي لوعتك، وأرىٰ تخاذل أطرافك، وانتقاع

(١) – بلاغات النساء ص ٤٨

(٢) – الفروق اللغوية. لأبي هلال العسكري.تح: عماد زكي البارودي، ص٢١٦ ، المكتبة التوفيقية.د.ت.

(٣)–الحامة : العامة ، وهي أيضا خاصة الرجل من أهله وولده . لسان العرب مادة (حمم)..

(٤) السامَّةُ: الخاصَّة.لسان العرب مادة (سام).

لونك، وإلىٰ الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب حزني عليك، أرقأ[1] فلا أرقىٰ، وأُبُلُّ[2] فلا أنقىٰ"[3] .

لم ينس مقام الحزن والتوجع السيدة "عائشة" ﵂أن توصي أباها، فنصحته وواساته بوصاية العامة، وإنفاذ الرأي في خاصته، ثم انتقلت إلىٰ بيان الحال النفسي واللوعة والألم، فخرجت موجة الحزن طويلة ممتدة هادئة عبر أسلوب النداء (يا أبت)، فنادته بنداء البعيد رغم حضوره للتحسر والحزن والتوجع، وتواطأت ألفاظ الفواصل علىٰ روي واحد هو(كاف) الخطاب (حامتك، سامتك، مقامك، لوعتك، أطرافك، لونك، عنك، عليك) وهو صوت شديد مُسْتفل مهموس مرقق انفجاري وصفاته صوتية تناسب وتشاكل مقام أمّ المؤمنين، فحزنها طبعي شرعي راعت فيه الأدب واللياقة من خفض الصوت والالتزام بالوقار وعدم الخروج علىٰ تعاليم الدين برفع الصوت والنياح بأصوات صاخبة، مع تنويع القافية في (أرقىٰ، أنقىٰ)، فحرف (القاف) صوت شديد مجهور مستعل، والانتقال من الكاف إلىٰ القاف في الفواصل مناسب لالتزام أم المؤمنين بخفض الصوت مع قوة الشعور وفورته في خروج الكاف، ثم خروج القاف المتبوعة بالألف في (أرقىٰ وأنقىٰ)، وهذا التكرار المنتظم ليس ميلا إلىٰ الصنعة اللفظية وتحقيق التناغم الموسيقي بقدر ما هو إفراغ لشحنة الأسىٰ والشجىٰ للوعة فراق السند والظهر (الأب).

---

(١) – أرقأ : من الرُّقْية وهي العُوذة التي يُرْقىٰ بها صاحبُ الآفةِ كالحُمَّىٰ والصَّرَع وغير ذلك من الآفات. لسان العرب مادة (رقىٰ).

(٢) – أبل: برَأَ وصَحَّ. لسان العرب مادة (بلل).

(٣)– بلاغات النساء ص ٥٠

ومن ذلك ما نُسب للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ حينما توفي أبوها وذهبت إلىٰ سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه تطلب حقها في الإرث فمنعها؛ لأن الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقة، فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تطلب حقها قائلة:

"الْحَمْدُ للهِ عَلىٰ ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ علىٰ ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَاها، وَسُبُوغ آلاءٍ أَسْداها، وإِحْسَانِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإِحْصاءِ عدَدُها، وَنأىٰ عَنِ الْمجَازاة أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإِدْراكِ آمَالُهَا، واستثن الشُّكْرِ بفضائلِها، وَاسْتَحْمَدَ إِلَىٰ الْخَلائقِ بِإِجْزالِها، وَثَنّىٰ بِالنَّدْبِ إلىٰ أَمْثالِها، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإِخْلاصَ تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولها"(١) .

افتتحت الخطبة بمقدمة مطولة (اثنتين وعشرين) سطرا وهذا غير معتاد في مقام المطالبة بحق، فهذا مقام يستدعي الإيجاز، وحذف الفضول، والتركيز علىٰ الحجج والأدلة العقلية والنقلية، مع الاستعانة بالوسائل اللغوية والصوتية التي تخاطب النفس لحسن موقعها من السمع، وسهولتها في الحفظ، وتكرار الأوزان المتماثلة التي تطرب السامع فيهش ويصغىٰ ويتأثر وينفعل فينتج عن ذلك استجابة، وهذه وظيفة البيان البلاغي إقناع مع إمتاع، فلم يؤثر عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها كانت خطيبة أو تجلس للرأي والمشورة، وهذا لا يمنع جرأتها في الحق في الذبّ عن أبيها، ومناقشته في أمور زوجاته والعدل بينهن وبين ابنة أبي قحافة، فعند تبّصر هذه الخطبة، ومحاولة فقه

(١) – بلاغات النساء ص٥٩

لغتها وبيانها، نجد أثر التكلف واضحا باديا، فقد قصّت السنة الصحيحة مراجعة السيدة فاطمة للصديق ولكن هذا الجدل والمماراة لم تقصها، فقد ورد فيها من الألفاظ المسجوعة ما يكلّ الإحصاء عن تتبعه "أنعم وألهم وقدم، ابتداها وأسداها ووالاها، عددها وأمدها وآمالها، بفضائلها وبأجزالها وأمثالها، تأويلها وموصولها ومعقولها، ....."، وإذا ثبت نسبة هذه الخطبة[1] لابنة رسول الله ﷺ علىٰ ما فيها من مبالغة وتكلف لا يصح نسبتهما إليها ـ خاصة أنها تخاطب الصديق ﷺ ومراعاة لمقامه ومقتضىٰ حاله لا يحتاج لكل هذه النصائح والتبصرة والذكرىٰ ـ وابتداء الخطبة بالحمد علىٰ النعم، والشكر علىٰ الإلهام، والإطناب في الحديث عن النعم والآلاء والمنن إيماء إلىٰ الغنىٰ والقناعة والرضا وعدم الحاجة، وتنبيه من أول الأمر علىٰ أن المُطالَب به حق، فيُفحم السامع ويُحصر عن الرد.

وهذه نتفة من كلام السيدة "زينب بنت علي بن أبي طالب" ﷺا لما قُتل "الحسين بن علي" ﷺ وانصرف أمير الجيش الذي قاتله إلىٰ "يزيد بن معاوية" بالنسوة والبقية من آل سيدنا محمد ﷺ، وجعل "يزيد" يتشفّىٰ ويشمت عصبية لذويه الذين قُتلوا يوم بدر، فأسكتته الطاهرة "زينب" ببلاغتها وجرأتها، ولمزت عربيته ومروءته قائلة:

(١) – اختلف في نسبة هذه الخطبة إلىٰ السيدة فاطمة ﷺ ، فطعن في نسبتها لها ينظر بلاغات النساء ص ٥٤

"أَمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساؤك وإماؤك[1] وسوقك بنات رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قد هتكت ستورهن، وأصحلت[2] صوتهن، مكتئبات تخدىٰ بهن الأباعر ويحدو بهن الأعادي من بلد إلىٰ بلد لا يراقبن، ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد، ليس معهن وليّ من رجالهن، وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن والإحن والأضغان؟.....مع إني والله يا عدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، غير أن العيون عبرىٰ، والصدور حرىٰ[3]، وما يجزي ذلك أو يغني عنا"[4] .

أقذعت السيدة "زينب" بالهجاء لـ"يزيد" في مقام تزل فيه الأقدام وتنحني له الهامات، فلم تأبه بعدوها ولكنها نادته نداء جهيرا ذامة له بـ"ابن الطلقاء" وهو كناية عن ضعفهم وذلهم في مقابل قوة وعفو وصفح رسولنا صلىٰ الله عليه وآله وسلم حيث أطلق آباء "يزيد" وعفىٰ عنهم يوم فتح مكة رغم إساءتهم له، وفي مقابل ذلك أهنتَ نساء بيته، وأبرزتهم للناس غرضا يُرمىٰ وأنت سليم، فلم تقف السيدة "زينب"منه موقف القاضي تحكم عليه حكما تقريريا رغم أنها تقول حقائق بل صورت ما قام به في أسلوب استفهامي حواري يثير الذهن ويدفعه إلىٰ التفكير ثم الحكم علىٰ ما اقترفه "يزيد" في حقهن، فتكرار (كاف) الخطاب المفردة سهام موجهة إليه وعدم اكتراث

(١)– وردت هكذا في التحقيق مرفوعة، والصواب "إماءك ونساءك" بالنصب.

(٢) – صحل صوته: بحّ من البكاء. لسان العرب مادة (صحل).

(٣) – حرىٰ: غِضاب ذوو همّ وغمّ. لسان العرب مادة (حرىٰ).

(٤) – بلاغات النساء ٧٢ :٧٣

بصفته خليفة علىٰ المؤمنين، يتمثلها السامع وكأنها تدفعه في صدره دفعا شديدا بكل كاف انفجارية ترددت، ثم شفعتها بالسجع (ستورهن وصوتهن، يراقبن، يؤوين، الشنآن والأضغان) الاتكاء والضغط علىٰ نون النسوة وتكرارها في الفواصل يفصح عن الأسىٰ والحزن علىٰ تكشف نساء بيت النبوة العفيفات، ثم ترقىٰ الإنكار والإقذاع بندائها ليزيد بقولها "يا عدو الله وابن عدوه" وقذفته بقنابل لغوية مرصعة الأوزان قفّتها بكاف الخطاب مرة أخرىٰ (أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك) ثم انتقلت من الشدة الصوتية إلىٰ الرقة (العيون عبرىٰ، والصدور حرىٰ) فتكرار الرار المكررة أفصح عن حزن متواصل وألف اللين سمحت لهذا الحزن الدفين أن ينبعث من مكامنه متبرجا في صورة دموع.

ومن كلام السيدة "أم كلثوم" ﵂ حين قُتل أخوها "الحسين" ﵁ وكان أهل الكوفة يبكون عليه وينتحبون وهم سبب مقتله تقول: "أتبكون أي والله فابكوا وإنكم والله أحرياء بالبكاء، فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا، فلقد فزتم بعارها وشنارها[1]، ولن ترحضوها[2] بغسل بعدها أبدا، وأنىٰ ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شبان أهل الجنة، ومنار محجتكم، ومدره[3] حجتكم، ومفرخ[4] نازلتكم، فتعسا ونكسا..... أتدرون أي كبد

(١) – شنار: أَقبح العيب والعار. لسان العرب مادة (شنر) .

(٢) – ترحضوها: تتطهروا . لسان العرب مادة (رحض) .

(٣) – مدره: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم والذي يرجعون إلىٰ رأيه، المقدم في اللسان واليد عند الخصومة. لسان العرب مادة (دره).

(٤) – مفرخ: مذهب وكاشف ومزيل.لسان العرب مادة (فرخ).

لرسول الله ﷺفريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، لقد جئتم بها شوهاء خرقاء، شرها طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن قطرت السماء دما ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينظرون"[1].

ربطت السيدة "زينب" بين ثنائي عالم الحياة والآخرة بالاستفهام عن البكاء في الدنيا وعذاب الآخرة، واتخذت من السخرية والتهكم طريقا لتوبيخ وتقريع أهل الكوفة في قولها : (أحرياء بالبكاء، فلقد فزتم) اعتمد الحوار علىٰ أسلوب الاستفهام وضمير الخطاب لتنص علىٰ تسبب المخاطبين في الهزيمة وتحملهم إثمها، فلم تجعل المسند إليه ضميرا غائبا بل أبرزته مخاطبا ووجهت إليه تهمة سفك دم "الحسين"، فهم طرف الصراع الداخلي، والتوجه إليهم بالخطاب وهم جماعة والمتكلمة فردا جرأة وشجاعة يعز نظيرها، فلم تختفِ وراء سرد وبوح لحزنها، بل كانت رابطة الجأش أشارت إليهم بيدها لتسكتهم ثم واجهتهم بخيانتهم، فالتكرار الحرفي لصوت(الكاف) أربعة عشر مرة ما بين ضمير للخطاب وأصل المادة اللغوية، والتكرار القفوي للمقطع الأخير من الكلمتين (بعارها وشنارها)، وتكرار الوزن الصرفي (شوهاء خرقاء) وتكرار قوافي الفواصل (النبوة، الرسالة، الجنة) و(محجتكم، حجتكم، نازلتكم، فريتم، أبرزتم، سفكتم) (خرقاء، السماء)، وتكرار الجناس بين (ترحضوها وترحضون) ليس انتخابا متعمدا ولكنه توكيد وإبراز لمعاني الحزن والأسىٰ خاصة أنها ارتجلت خطبتها علىٰ

(١) – بلاغات النساء ص ٧٦

البديهة، كما أنها زودت أهل الكوفة بتراكيب وجوابات مسكتة عن البكاء قابلة للتذكر والاسترجاع، دافعة للتفكير فيما اقترفوه.

وقولها: (معدن الرسالة، وسيد شبان أهل الجنة، منار محجتكم، ومدره حجتكم، ومفرخ نازلتكم) من إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، والأصل أن يُبدأ بالموصوف ثم يُتبع بالصفة، فيقال: الرسالة معدنها، وشبان أهل الجنة سيدهم، محجتكم منارها، وحجتكم مدرها، ونازلتكم مفرخها، ولكن لمزيد العناية بالصفة قدمت ، للمبالغة في الوصف وأن "الحسين" ﷺ أصبح أصل هذه الصفات ومصدرها.

وتتحدث السيدة "حفصة" ﷺ عن فضل أبيها، ودوره في تحقيق العدل والاضطلاع بمهام المسلمين، تقول: "فأخسأ الشيطان، ووقم[1] كيده، وكفف إرادته، وقدع[2] محنته، وأصعر خده لسبقه إلىٰ مشايعة أولىٰ الناس بخلافة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم الماضي علىٰ سنته، المقتدىٰ بدينه، المقتص لأثره، فلم يزل سراجه زاهرا، وضوءه لامعا، ونوره ساطعا، له من الأفعال الغرر، ومن الآراء المصاص، ومن التقدم في طاعة الله اللباب، إلىٰ أن قبضه الله إليه قاليا لما خرج منه، شانيا لما ترك من أمره، شبقا لمن كان فيه، صبا الىٰ ما صار إليه، وائلا إلىٰ ما دعىٰ إليه، عاشقا لما هو فيه"[3]

---

(١) – وقم: ردّه أقبح ردّ . لسان العرب مادة (وقم).

(٢) – قدع: كفها ومنها عما تتطلع إليه . لسان العرب مادة (قدع).

(٣) – بلاغات النساء ص٧٩

انسالت الألفاظ المسجوعة سجعا مطرفا كما في قولها: (كيده، إرادته، محنته، خده) ثم وردت الموازنة في قولها:(المقتدىٰ بدينه، المقتص لأثره) و(زاهرا، لامعا، ساطعا) و(اللباب، المصاص) و(قاليا، شانيا) (شبقا، صبا) وتكرار (من)، فالفواصل ليست متكلفة مقصودة، بل قادها المعنىٰ ومكن لها لما هو ثابت في السنة أن الشيطان يخاف الفاروق ﷺ، ويسلك غير مسلكه، ولذلك لم تتكلف حين أبرزت مدافعته للشيطان وسد كل مسالك وسوسته بالإسراع بمبايعة سيدنا (أبي بكر)، ثم انتقلت إلىٰ نوع آخر من التطريب بالاتكاء علىٰ المقطع الأول من الجملة (المقتدىٰ، المقتص) لتبرز رجاحة عقل والدها، وعدم تسرعه في باطل أو إنصاف من لا يستحق، وتكرار الأسجاع والفواصل والأوزان هنا يبرز استحقاق سيدنا أبي بكر للخلافة استنادا علىٰ حقائق وأفعال صدرت منه.

وهذا ردّ "أم الخير" – من أنصار "علي بن أبي طالب" – علىٰ "معاوية" عندما سألها عن مسيرها: "لم أزل في عافية وسلامة حتىٰ أوفدت إلىٰ ملك جزل وعطاء بذل فأنا في عيش أنيق عند ملك رفيق"(١)

فجوابها يشير إلىٰ سكينة نفس ورباطة جأش، فقد دُعيت إلىٰ من تكره ووقفت ضده، ولكنه أحسن وفادتها وأنزلها منزلا حسنا فلهج لسانها بالبر والثناء دون خوف، وبالغت في ذلك بأسلوب المجاز العقلي فأسندت البذل إلىٰ العطاء والأناقة إلىٰ العيش، والعطاء مبذول والعيش مُؤْنِق، فجلب المعنىٰ السجع (جزل وبذل، أنيق ورفيق) وطلبه ردا علىٰ سؤال "معاوية" لها

(١) – بلاغات النساء ص ٩٦

"وكيف وجدت مسيرك؟"، فصورت المسير ولم تغلظ عليه؛ لأن "معاوية" يدير معها حوارا بعيدا عن سلطة القهر والإلزام والمغالطة والاستعلاء، فلجأ إلىٰ مواساة الضعف البشري، ولذلك كان رد السيدة مصورا رحلتها ووفادتها دون لجوء لإصدار حكم مباشر عليه بصلاح أو فساد.

وأعطىٰ "معاوية"عجوزا سألته وشكت إليه ضنك المعيشة فقالت:"أجزل الله في الآخرة أجرك، وأعلىٰ في الدنيا كعبك، ورفع فيهما ذكرك، وغفر لك يوم الحساب ذنبك"(١)

عبرت العجوز عن امتنانها وشكرها، فلم تجد ما تشكره به غير الدعاء له بصيغة الخبرا تفاؤلا وإدخالا للسرور علىٰ قلبه، والمقام مقام شكر صادق نابع من إحساس العجوز بالفرح والعرفان فارتفع صوتها عبر تكرار أوزان متساوية ونبرة موسيقية بتكرار صيغة (أفعل) (أجزل وأعلىٰ) ثم إنهاء القرائن بفواصل موزونة مسجوعة سجعا متوازيا (أجرك، كعبك، ذكرك، ذنبك) فلم تنفصل موسيقىٰ الكلام عن المعنىٰ، فقسمت لكل حال ما يلائمها، واستوعبت أقسام الزمان (دنيا وآخرة)، فقدمت الآخرة؛ لأنها الأبقىٰ، ثم ذكر الدنيا لمقابلتها للآخرة، ودعت له فيها بعلو الكعب كناية عن الشرف والرفعة، ثم جمعت له الرفعة في الدارين، ثم خصصت المغفرة للذنوب بيوم الحساب، فالمعنىٰ والمقام يسوق الألفاظ نحو السجع سوقا حثيثا لا أثر فيه لقصد أو تعمل بل إن المقام يفرض تكرار الأوزان الموسيقية النابعة من الطرب والشعور بالفرح.

(١) – بلاغات النساء ص ١٠١

وهجت "الجمانة بنت المهاجر" "عبد الله بن الزبير" وهو يخطب علىٰ المنبر فبلغه ذلك فواجهها بما قالت فردت عليه: "فاستر علىٰ الحرمة تستتم النعمة فوالله ما يرفعك القول ولا يضعك، وإن قريشا لتعلم أنك عابدها وشجاعها ولسانها، حاط الله دنياك، وعصم أخراك، وألهمك شكر ما أولاك"(١)

علمت المرأة بخطئها فتداركته وردت بأسلوب منطقي عقلي محاولة تصحيح ما اقترفته، فلجأت لأسلوب القسم أولا ثم الطباق لتسوي بين الحالين عند "ابن الزبير" سواء هُجي أم مُدح، ثم استعطفته بالدعاء بالأسلوب الخبري في موضع الإنشاء، ولغة العاطفة دائما موزونة؛ ولذلك تكرر المقطع (ها) ثلاث مرات، وتكررت الأسجاع المتوازية (يرفعك، يضعك) (دنياك، أخراك، أولاك) لتزيد من جمال وتأنق كلامها، وتجذب السامع جذبا روحيا وحسيا لما تمنحه الموسيقىٰ من التأثير والقبول، وبذلك تُسكته وتكون في مأمن من غضبه.

حدث العتبي قائلا: "وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم تغير بنا الدهر إذ قل منا الشكر، ولزمنا الفقر، فرحم الله من فهم بعقل، وأعطىٰ من فضل، وآثر من كفاف، وأعان علىٰ عفاف"(٢)

تخاطب المرأة المشاعر والحواس معا، فتوجه الناس إلىٰ عبادة قلّ من يؤديها وهي الشكر، فلجأت إلىٰ السجع المطرف (الدهر، الشكر، الفقر)

(١) – بلاغات النساء ص ١٠٣

(٢) – السابق ص ١٠٦

والمتوازي (بعقل، فضل، وكفاف، عفاف) فالإيقاع عندها يقوم علىٰ الثنائيات، فتغايرت القوافي وجعلت لكل قرينتين قافية، والتنوع يدل علىٰ تمكن القائلة وقدرتها علىٰ إثارة الدهشة، وجذب الانتباه، فالقوافي رغم تغايرها يُسلم معنىٰ كل فاصلة لأختها، فالشكر كما يكون بالقول يكون بالفعل، وإذا تبين أن عمل الصالحات قليل فقد وجهت الأعرابية نحوه بالصدقة والعطاء تقويما للمجتمع بأسره.

وهذا حوار مما خاصمت به امرأة أبي الأسود زوجها في حضرة "معاوية" فقالت :"إن الله جعلك خليفة في البلاد، ورقيبا علىٰ العباد، يستسقىٰ بك المطر، ويستثبت بك الشجر، وتؤلف بك الأهواء، ويأمن بك الخائف، ويردع بك الجانف، فأنت الخليفة المصطفىٰ، والإمام المرتضىٰ، فاسأل الله لك النعمة في غير تغيير، والعافية من غير تعذير، لقد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق علي فيه المنهج، وتفاقم علي فيه المخرج لأمر كرهت عاره لما خشيت إظهاره فلينصفني أمير المؤمنين من الخصم، فإني أعوذ بعقوته من العار الوبيل والأمر الجليل الذي يشتد علىٰ الحرائر ذوات البعول الأجائر"(١)

عانت علاقة المرأة بزوجها من التصدع داخليا وخارجيا، ولم تنجح في إصلاح إعوجاجها؛ ولذلك لجأت إلىٰ الخليفة"معاوية" وهي تعلم مكان زوجها منه، فلم تأبه بذلك، وذهبت إليه وسلمت مفتتحة كلامها بمطلع كاشف عن غرضها ومقصودها، فمدحته بصفات عقلية من شأنها أن تنبه

(١) – بلاغات النساء ص ١١٥

الضمير وتوقظ العقل من الغفلة، وتوجهه لثقل الحمل الملقىٰ علىٰ عاتقه هربا من الوعظ المباشر، بلغة أدبية مزخرفة مسجوعة تروع السمع قبل القلب بفواصل موزونة مقفاة، وربما لجأت إلىٰ الترصيع فكررت أوزان القرائن (خليفة في البلاد، ورقيبا علىٰ العباد)، (يستسقىٰ بك المطر، ويستثبت بك الشجر)، (ويأمن بك الخائف، ويردع بك الجانف) (المصطفىٰ، المرتضىٰ)، (في غير تغيير، من غير تعذير)، (عليّ فيه المنهج، عليّ فيه المخرج) (الوبيل، الجليل)، أرادت زوجة "أبي الأسود الدؤلي" أن تثير "معاوية" داخليا للنظر في مظلمتها عن طريق التنظيم الصوتي التي تعمدته وقصدته لتوحي بالظلم الواقع عليها، وتبرز الأسىٰ النفسي العميق الذي تجرعته، فابتدأت الحديث بالجملة الاسمية "إن الله جعلك..." وكأن الخلافة دائمة مستمرة لاصقة بـ"معاوية" لا تنفك عنه أبدا، وأعلت كعبه بأن جعلت اسم الجلالة مسندا إليه هذا الجعل، ثم جعلته رقيبا يرقب ويرعىٰ جميع أحوال الرعية ويحفظ لهم كرامتهم ، ثم عبرت بجمل الحال المضارعة (يستسقىٰ..يستثبت..) لإثبات هذه الأفعال إلىٰ الخليفة إثباتا متجددا متكررا حالة كونه رقيبا مدحا له ونفي توهم أن يكون خليفة جبارا يُمنع العباد بسببه المطر، وقد اتكأت الزوجة علىٰ تكرير الأوزان تكريرا ثنائيا فرصعت كل قرينتين ترصيعا متماثلا، فكل تركيب نغمي صوتي له نظيره مما يخلق عنصر التغني بدقة، ويرصد بالنهايات المتماثلة، وغايرت بين فواصل القرائن فانتقلت من (الدال) و(الراء) الجهيرتين إلىٰ (الفاء) المهموسة وهذا مناسب للمقام، فأفعال الخليفة معروفة معلنة نافذة ؛ولذلك جُهر بها في القافية (البلاد، العباد، المطر، الشجر)، أما الخائف والظالم فهما مستتران؛ ولذلك جاءت (الفاء)

المهموسة رويا (الخائف، الجانف) وهي مناسبة لحال التخفي والتستر، وكذلك (الجيم) الانفجارية الشديدة توحي بانفراج الأزمة وتلاشي الشدة (المنهج والمخرج) باللجوء إلىٰ الخليفة، ثم انتقلت إلىٰ (اللام) المجهورة المتوسطة بين الشدة والرخاوة (الوبيل، الجليل) مكررة وزن القافية كأنها تندب وترثي حالها لتكرار الياء واللام تنفث ما تجد في صدرها من ضيق، ثم (الراء) وهي صوت مجهور متسفل تكراري يحتاج لمجهود عضلي في النطق[1] وهو مناسب لصعوبة احتمال الحرة للهوان والضيم ولذلك تكررت (الراء) في الكلمة (الحرائر).

أدركت المرأة بفطرتها قيمة البنية الإيقاعية بمستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية وما فيها من تأثير يخاطب المشاعر والحواس معا، ويصور الأسىٰ والحال النفسي التي تشعر به جراء كسرها، فاهتمت بها وتخيرت مفرداتها وتراكيبها لتصنع منهما لحنا موسيقيا يعبر عما لا تستطيع البوح به لتثير الانتباه، وتستدعي الفهم والقدرة علىٰ الاستيعاب.

كل هذا والمرأة تستر عيب زوجها ولا تريد أن تفصح عما يسوء، ولكن الخليفة عزم عليها أن تجيبه فقالت: "والله لولا مكان أمير المؤمنين وحضور من حضره من المسلمين لرددت عليك بوادر كلامك بنوافذ أقرع كل سهامك وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بعلا ولا أن تظهر لأحد جهلا، فقال معاوية: عزمت عليك لما أجبته قال: فقالت يا أمير المؤمنين: ما علمته إلا سؤلا جهولا، ملحا بخيلا، إن قال فشر قائل، وإن سكت فذو

(١) – موسيقىٰ الشعر. إبراهيم أنيس. ص٢٩ ، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية١٩٥٢م .

دغائل، ليث حين يأمن، وثعلب حين يخاف، شحيح حين يضاف، إن ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر رشائه ولؤم آبائه، ضيفه جائع، وجاره ضائع، لا يحفظ جارا، ولا يحمي ذمارا، ولا يدرك ثارا، أكرم الناس عليه من أهانه وأهونهم عليه من أكرمه، قال: فقال معاوية: سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة من السجع!" (١)

اتخذت المرأة الوزن والسجع المتوازي وسيلتين تخرج بهما كل ما يعج بداخلها من مشاعر سيئة تجاه الزوج في قولها: (بوادر كلامك، بنوافذ سهامك) (أن تشتم بعلا،أن تظهر جهلا)، (جهولا، بخيلا)، (قائل، دغائل)، (حين يخاف، حين يضاف)، (رشائه، آبائه)، (جائع،ضائع)، (لا يحفظ جارا، ولا يحمي ذمارا، ولا يدرك ثارا) فالمرأة لم تضطر إلىٰ إيراد مثل هذه الأوزان ولكن اللفظ جاء مؤتلفا مع معانيها؛ لأنها تعي ما تقول جيدا فهي امرأة جريئة بليغة حكيمة، فلم تقاطع زوجها أثناء حديثه المهين لها ولكرامتها كزوجة تتسم بحسن الخلق وطيب الجوار، بل كان ردها ينم عن شخصية متزنة انفعاليا وحافظة لسر الزوج، وقد انطلق غيظها وجرحت كرامتها في أسلوب القسم ثم في الأوزان المتفقة، فلم تكرر السجع في كل كلامها بل جددت الوزن والقافية فغايرت بينهما، فكل تواز للوزن والسجع يوجد في جملتين أو ثلاث علىٰ الأكثر مع المحافظة علىٰ الفاصلة التي تقف عندها مستريحة تلتقط أنفاسها لتتكرر إطلاق القذائف اللغوية الموزونة التي تسترعي السمع؛ لحسن وزنها ومبناها، وتسترعي القلب لجودة معناها،

(١)- بلاغات االنساء ص١١٧

فوصفت هذا الزوج بصفات ينفر منها كل رجل عربي أبيّ، وكانت سلاسة الأوزان مع السجع واطرادهما في سهولة وتحدر ما جعل الخليفة "معاوية" يتعجب من حسن سجعها وجماله.

ثم حضرت المرأة وقت الرواح تحمل ابنا لها فلما رآها "أبو الأسود" قام إليها لينتزع ابنه منه فأمره "معاوية" أن يدعها تنطق بحجتها فأجابت فأفحمت وأسكتت قائلة: " فقال له معاوية: يا أبا الأسود لا تعجل المرأة أن تنطق بحجتها، قال أبو الأسود يا أمير المؤمنين: أنا أحق بحمل ابني منها، فقال له معاوية: يا أبا الاسود دعها تقل، فقال أبو الأسود يا أمير المؤمنين: حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، قال فقالت: صدق والله يا أمير المؤمنين، حمله خفًّا وحملته ثقلا، ووضعه بشهوة ووضعته كرها، إن بطني لوعاؤه، وإن ثديي لسقاؤه، وإن حجري لفناؤه، قال: فقال معاوية: سبحان الله لما تأتين به"[1].

لم تأت التراكيب (إن بطني لوعاؤه، وإن ثديي لسقاؤه، وإن حجري لفناؤه) عشوائية بل جاءت مرصعة، منتظمة وزنا، مقصودة ترتيبا نقلت إحساس الأمومة وعاطفتها، فتكرار أدوات التوكيد (إن واللام) ثلاث مرات في مقام مدافعة المرأة عن حق أصيل؛ لأن الزوج يقارن بين دوره الفسيولوجي في تكوين الولد ودور الأم، وينصف نفسه ويراها أحق بالبنوة، ففارقت المرأة بين طبيعتي الرجل والمرأة المختلفتين، ثم أطنبت بما يربي الفائدة فذكرت ما تنفرد به من المزايا التي أهلتها لتكون أحق فعددتها وأكدتها خروجا بالخبر

(١) - بلاغات االنساء ص ١١٧

علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر تنزيلا للزوج منزلة المتغافل الساهي، وكان يكفيها أن تؤكد بمؤكد "إشارة إلىٰ أن الخبر الملقىٰ إليه مما لا يليق بالعاقل إنكاره"(١) .

لما قتل "عليّ" ﷺ، بعث "معاوية" في طلب شيعته، فكان في من طلب "عمر بن الحمق الخزاعي" فراغ منه فأرسل إلىٰ امرأته "آمنة بنت الشريد" فحبسها في سجن دمشق سنتين، ثم أن "عبد الرحمن بن الحكم" ظفر بـ"عمر بن الحمق" في بعض الجزيرة فقتله وبعث برأسه الىٰ "معاوية" وهو أول رأس حُمل في الإسلام، فلما أتىٰ "معاوية" الرسول بالرأس بعث به إلىٰ "آمنة" في السجن وقال للحرسي: احفظ ما تكلم به حتىٰ تؤديه إليّ واطرح الرأس في حجرها ففعل هذا فارتاعت له ساعة، ثم وضعت يدها علىٰ رأسها وقالت: "واحزنا لصغره في دار هوان، وضيق من ضيمه سلطان، نفيتموه عني طويلا، وأهديتموه إليّ قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية، ارجع به أيها الرسول إلىٰ "معاوية" فقل له ولا تطوه دونه: أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك، فرجع الرسول إلىٰ "معاوية" فأخبره بما قالت فأرسل إليها فأتته وعنده نفر فيهم إياس حسل، أخو مالك بن حسل، وكان في شدقيه نتوء عن فيه لعظم كان في لسانه، وثقل إذا تكلم. فقال لها معاوية: أأنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟ قالت: نعم، غير نازعة عنه، ولا معتذرة منه، ولا منكرة له، فلعمري لقد اجتهدت في الدعاء إن نفع الاجتهاد، وإن الحق لمن وراء العباد، وما بلغت شيئا من جزائك، وإن

(١) – حاشية المير سيد شريف علىٰ المطول، ص٥٠، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

الله بالنقمة من ورائك، فأعرض عنها معاوية.... ثم قال:لله درك، اخرجي، ثم لا أسمع بك في شيء من الشام، قالت: وأبي لأخرجن، ثم لا تسمع بي في شيء من الشام، فما الشام لي بحبيب، ولا أعرج فيها علىٰ حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحن فيها إلىٰ سكن، ولقد عظم فيها ديني، وما قرت فيها عيني، وما أنا فيها إليك بعائدة، ولا حيث كنت بحامدة"[1]

تحمل هذه المرأة قلبا شديدا، ولسانا حديدا، فحين رأت رأس زوجها خاطبت مَن رمىٰ به في حجرها خطابا عنيفا جريئا لم تأبه فيه لمكانة "معاوية"، فلم تتمتم وتغمغم بما لا يُفهَم، بل علا صوتها آمرة ناهية قائلة:"ارجع به أيها الرسول إلىٰ "معاوية" فقل له ولا تطوه دونه"، ثم تبدت جرأتها أكثر وأوضح حينما دعت عليه بأسلوب خبري مرادا به الإنشاء: "أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك" "لإظهار الحرص في وقوعه....وكون المطلوب قريب الوقوع في نفسه لقوة الأسباب المتآخذة في وقوعه"[2] فهي في قرارة نفسها تعلم أن زوجها قد ظُلم، وتعلم أن ظالمه قوي قادر ولكن مرارة الحبس والفقد جعلها تصوغ دعاءها في شكل إيقاعي مطرد متمركز في فواصل الجمل (ولدك، أهلك، ذنبك) في نقطة محددة هي حرف الروي (الكاف) بوصفه شعورا واحدا يحتوي علىٰ مشاعر الفقد والأسىٰ والحزن مختلطا بالصبر والشجاعة التي تبدت في التوجه إلىٰ "معاوية" بالخطاب المفرد (الكاف) تهوينا له واحتقارا لشأنه؛ ولأن "معاوية" عليم

(١) - بلاغات النساء ص ١٣٣: ١٣٥

(٢) - المطول ص ٢٤٦

بمرامي الكلام وبلاغته رد عليها قائلا: "أأنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟ قالت: نعم، غير نازعة عنه، ولا معتذرة منه، ولا منكرة له، فلعمري لقد اجتهدت في الدعاء إن نفع الاجتهاد، وإن الحق لمن وراء العباد، وما بلغت شيئا من جزائك، وإن الله بالنقمة من ورائك، فأعرض عنها معاوية."

استفادت المرأة من سعة الاشتقاق في اللغة العربية فاشتقت من الصيغ (اجتهدت، الاجتهاد)، وكررت الأوزان المشتقة (اسم الفاعل) (معتذرة، منكرة)، كما كررت حرف النفي (لا)، وتحركت حركة إيقاعية أفقية منتقلة بين قوافي القرائن (عنه، منه، له) و(الاجتهاد، العباد) و(جزائك، ورائك) فهي ليست في حاجة إلىٰ إيضاح خطأ أو توجيه نصيحة؛ لأن التركيب الموسيقي للقافية يقول، والصياغة تكشف عن تجربتها، فأقرت بالجواب أولا:(نعم) ثم أردفته ملحة إلحاحا ظاهرا علىٰ استحقاق "معاوية" الدعاء عليه بالفقد واستحقاق الجزاء من خلال ركائز لغوية اعتمدت عليها من تكرار للنفي، ومجيء أسلوب القسم مشفوعا بالتأكيد، مع الانتقال بين القوافي، فلم تعتمد علىٰ قافية واحدة تُسكت بها معاوية فيُطرق لتتابع الأوزان المتماثلة ذات القوافي الموحدة، بل غايرت بين قوافيها لتوقظ سمع معاوية وانتباهه لكل دعاء واتهام توجهه إليه.

وبرزت جرأتها أكثر حدة وشعورها أكثر انفعالية حينما أمرها "معاوية بترك الشام فردت عليه مُسكتة له: "فما الشام لي بحبيب، ولا أعرج فيها علىٰ حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحن فيها إلىٰ سكن، ولقد عظم فيها ديني، وما قرت فيها عيني، وما أنا فيها إليك بعائدة، ولا حيث كنت بحامدة"

افتتحت بأسلوب خبري مستعمل في التحسر والتوجع، وكررت أسلوب النفي مرتكزة علىٰ أداتين من أدوات النفي (ما ولا) فعلامات الإنكار لا تقع حشوا[١]، لتأكيد عدم الإقامة والمكث في بلد سجنتها وقتلت زوجها مبالغة في ذم الشام يستتبعه ذم أهلها، ودخول (الباء) في خبرها (بحبيب، بوطن، بعائدة ، بحامدة) لتوكيد نفي القدوم إلىٰ الشام مستقبلا[٢] بعد مغادرتها معللة ذلك بعدم الميل لأهلها دون مواربة أو تستر، فأطلقت لفظة (حبيب) وأرادت أهلها وساكنيها، علىٰ سبيل المجاز المرسل، علاقته المحلية، فأهل المكان هم المقصودون بالمحبة، كما أن قولها: (حميم) حذفت الموصوف وإقامة الصفة مقامه[٣]، أي: صديق حميم، وهو ممتنع القياس في إطراده[٤] للإبهام، ولكن المحذوف هنا مفهوم من قرينة الحال وقيام الدليل عليه قال تعالىٰ : "وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ" (الشعراء: ١٠١)؛ لكون

(١) شرح المفصل تقديم: د.إميل بديع يعقوب،٥/ ١٨٤ دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

(٢) -استفيد هذا المعنىٰ من حرف النفي(لا) فهي: حرف موضوع لنفي المستقبل، فلا ينفىٰ بها فعل الحال. ينظر شرح المفصل ٥/ ٣١

(٣) "لو قلت: أتاني اليوم قوي، وألا باردا، ومررت بجميل، أفلا ترىٰ أن هذا يقبح ههنا كما أن الفعل المضارع لا يتكلم به إلا ومعه الاسم؛ لأن الاسم قبل الصفة" الكتاب.سيبويه. تح: عبد السلام هارون، ١/ ٢١، ط٣، مكتبة الخانجي ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٤) - المثل السائر. ابن الأثير، تح: د.بدوي طبانة ود. أحمد الحوفي، ٢/ ٢٩٨ وما بعدها، دار نهضة مصر.د.ت.

الصفة خاصة بالموصوف[1]، وكان التصدير بحرف النفي في بداية كل قرينة حسنا، غير مستكره أو مستثقل؛ للفصل بين القرائن بواو العطف[2]، وكان الاهتمام بالبُعد المكاني مِعْوانا علىٰ تنسيق الإيقاع إضافة إلىٰ تتابع الفواصل (بحبيب، حميم) و(بوطن، سكن)، و(ديني، عيني) ، و(بعائدة، وبحامدة) التي شحنت ردود "ابنة الشريد" بالتدفق الانفعالي المسيطر حيث جاءت الحروف المجهورة (الباء، والميم والتاء المربوطة) رويا و(النون) متكررة ليملأ الإيقاع سمع معاوية، ولم تطرد الفاصلة علىٰ وزن واحد وروي موحد بل ازدوجت؛ فكل فاصلتين متماثلتان في الوزن والتقفية؛ لأن النفس مجبولة علىٰ حب النقلة، فتنويع القافية أخذ نوعا من التضافر يجمع بين الموافقة والمخالفة علىٰ صعيد واحد[3].

ثانيا: الجناس:

ورد هذا الأسلوب سمحا غير متكلف في مقامات الهجاء، وكأن المتكلمة تريد أن تكون كلماتها متقاربة لتُحفظ عنها، ويشيع قولها في أوساط الناس، وكذلك ورد الجناس في مقامات الرثاء التي تريد المتكلمة فيها أن تنفث عن صرخات الألم ونوبات الحزن والهلع، فترد الألفاظ متماثلة، أو متقاربة وزنا بتغيير صغير، وكأنها بهذه الألفاظ المتقاربة تريد أن تطبع شعورها في وجدان

---

(١) البرهان في علوم القرآن. الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، ص٧١٨، دار الحديث.القاهرة١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٢) – المثل السائر١/ ٣١٣

(٣) – هكذا تكلم النص. استنطاق الخطاب الشعري لرفعت سلام.د.محمد عبد المطلب، ص١٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

السامع إلىٰ أقصىٰ ما تستطيع، فحينما قتل "عثمان" ﷺ رثته السيدة "عائشة" معددة مناقبه وكان منها قولها:"أما والله لقد حاط الإسلام وأكده وعضد الدين وأيده"(١) جانست بين اللفظين (أكده، أيده) جناسا لاحقا باختلاف حرف واحد ببراعة وسهولة، ففي مقام الرثاء وسرد المحامد تريد المتكلمة أن تقنع السامع بما تقول، فتلجأ إلىٰ أساليب التوكيد ومنها هنا الافتتاح بأسلوب القسم الذي يسترعي عقل المخاطب فيجذبه، ويسيطر علىٰ تفكيره، ويستحوذ علىٰ تصديقه، ولم تكتف بأسلوب التوكيد القسمي بل عاونته بأفعال مدلولها اللغوي أيضا يقوي التوكيد(وأكده، أيده)، وكأن مقام الإنكار الذي فرضه طبيعة الموقف وهو قتل البرئ حتّم علىٰ المتكلمة أن توظف كل طاقاتها الإبداعية لتوكيد البراءة وإثباتها، فلم تكتف بالتوكيد التركيبي (القسم) بل استعانت بالإيقاع فاختارت مفردات متشابهة صوتيا منبعثة عن مثير نفسي يقرع قلب المخاطب فيجلب إليه اهتماما خاصا بمدلوله.

ومن كلام "أم كلثوم" تعدد صفات أخيها "الحسين"، تقول: "ومنار محجتكم ومدره حجتكم"(٢) فقولها:(محجتكم، وحجتكم) جناس ناقص، فرثته بصفات نفسية، فهو علم يهديكم الطريق، وهو حجتكم في الحرب والمخاصمة، فأعادت اللفظة بأصواتها وجرسها مع تغيير صغير، وفي كل تكرير معنىٰ جديد، وهذا من شأنه أن يوقظ النفس، ويحرك قواها لمعرفته، فشتان بين المحجة والحجة، ولكن التجانس الصوتي يشير إلىٰ أن ثمة تقارب

(١) - بلاغات النساء ص ٥٣

(٢)- السابق ص٧٦

دلالي، فَالحجّ: القصد، وكل قصدٍ حج، والمحجة: جادة الطريق؛ لأنها تقصد، والحُجة يقصد بها الحق المطلوب والظفر(١)، فالمحجة الجادة المستقيمة يلزم منها حجة قوية قاطعة، وكلاهما قصد في أصله، وهكذا يمس اللفظ شبه المعنىٰ.

ومن كلام "أروىٰ بنت الحارث" عندما وفدت علىٰ معاوية، ولامته لوما شديدا علىٰ ما كان منه من محاربة "علي" علىٰ الخلافة، تقول:"فأتعس الله منكم الجدود، وأصعر منكم الخدود حتىٰ رد الله الحق إلىٰ أهله"(٢) جانست بين (الجدود والخدود) جناسا مضارعا، والتجنيس هنا ليس قيدا قاسيا التزمت به المرأة لتظهر مقدرتها علىٰ تطويع اللغة، ولكنه تعبير عن نفس مهتاجة ملتاعة علىٰ قتل آل بيت النبي ﷺ ؛ ولذلك دعت عليهم بأسلوب خبري يراد منه الإنشاء لتحقق التعاسة لجدودهم والصعر لهم، وخصت الجدود لأن جدود معاوية وآباءه لم يكن لهم سبق إلىٰ الإسلام؛ ولذلك دعت عليهم بالتعاسة، أما أبناءهم الذين تقلدوا الخلافة عنوة فدعت عليهم بميل الخد، ومثلتهم في صورة البعير الذي أصابه داء فيلوي منه عنقه، لتحقق الذلة والإعراض عن الحق، فتكرار الكلمتين مع وجود شعرة صوتية ضعيفة فاصلة بين المفردتين مع اختلاف المعنىٰ، لتحقق إيقاعا يؤكد حدة إحساسها بالفقد

(١) – مقاييس اللغة.أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، ٢/ ٣٠، دار الفكر١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٢)– بلاغات النساء ص٨٢

وضياع الإسلام، فأنطقها هذا الشعور بالألفاظ المكررة المتشابهة تشابها تاما إلىٰ حد ما تنفيسا عن الألم وضيق الصدر.

ومن وصايا "ولادة العبدية" لمهدي عندما أراد الحج، تقول:"لا يتعد غضبك حلمك، ولا هواك علمك، وقِ دينك بدنياك، ووفر عِرضك بعَرضك، وتفضل تُخدم، واحلم تُقدم"(١) المقام مقام عهد بما فيه نفع الموصىٰ له، فلم تطلب المرأة منه الحرص والكنز والمداهنة، بل قدمت النواهي علىٰ الأوامر؛ لأن درأ المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح، فنهته عن الغضب واتباع الهوىٰ، ثم أمرته بترك متاع الدنيا صيانة لدينه وعرضه، وعندما تتحقق له السلامة ترقت إلىٰ ما يجعله سيدا مقدما، فركزت علىٰ الحلم، وكررته مرتين ردا للعجز علىٰ الصدر، كما دمجت الطباق(غضبك وحلمك، هواك وعلمك) بالتجنيس المضارع بين(حلمك وعلمك)، واللاحق(تُخدم وتُقدم)، والناقص(دينك بدنياك)، والمحرف(عرضك بعرضك)، فساعدها الطباق علىٰ إبراز صفات الاعتدال(الحلم والعدل) وما ينبغي أن يكون، وما يستتبع ذلك من صفات محمودة، وهي الأناة والتثبت والتحمل والإغضاء، أما الجناس بشتىٰ صوره فساعد علىٰ إقناع السامع، وتقوية المعنىٰ من خلال التشابه الصوتي بين الألفاظ الذي صحبه تشابه دلالي في الجناس المضارع واللاحق، وهو ما عبر عنه "العلوي" مُعرفا الجناس حيث قال:"وحقيقته في مصطلح علماء البيان: هو أن يتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف

(١)- بلاغات النساء ص١٠٥

معناهما، فما هذا حاله عام في التجنيس التام، والتجنيس الناقص"[1]وهو ما عبر عنه "ابن جني" أيضا بـ"إمساس الألفاظ أشباه المعاني"[2]، فالحلم والصبر والأناة طريق إلىٰ العلم وعون عليه، ومن خُدم وأعين علىٰ الحياة تقدم وبرز، أما الجناس الناقص فقد دخلت الباء علىٰ المتروك (بدنياك)، وهو وسيلة إلىٰ حفظ الدين، ففي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي جنة الإيمان، فبرغم تغاير المعنىٰ بين المتجانسين(دينك وبدنياك) إلا أن هناك صلة وجامعا بينهما "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مرمىٰ الجامع بينهما مرمىٰ بعيدًا"[3]، والجناس المحرف بين(عِرْضِك بعَرَضِك) دخلت الباء علىٰ المتروك، فالعَرض: وهو متاع الدنيا من مال وخلافه زائل متروك، والعِرض: وهو حسب الإنسان وخليقته مما يُمدح به أو يُذم باق مذكور، ورغم اختلاف اللفظين المتجانسين، ولكن الاثنين مما يحب الإنسان أن يحوزهما، فيجتمع المتجانسان في الوجود في حيز واحد، فيكون غنيا حسيبا محمودا، ولكن لما كان الغنىٰ قد لا ينال أحيانا إلا بمنقصة العِرض، أو قد يُدفع ثلب العِرض بالمال، أُمر باتقاء العِرض بالعَرَض، وتعمد المرأة لإيراد المتماثلات الصوتية، وتقسيمها لأجزاء متقاربة بما يشبه بعض؛ لأنها وصية تُحفظ، فتحتاج إلىٰ أوزان متكررة؛ ليسهل استرجاعها وتذكارها.

(١) – الطراز٢/ ١٨٥

(٢) – الخصائص ٢/ ١٥٢

(٣) – أسرار البلاغة ص٧

ووفدت امرأة من "هوازن" علىٰ "عبد الرحمن بن أبي بكرة" فقالت: "أصلحك الله، أقبلت من أرض شاسعة، ترفعني رافعة، وتخفضني خافضة، بملحات من البلاد، وملمات من الدهور، برين عظمي، وأذهبن لحمي، وتركنني والها، وأنزلني إلىٰ الحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض.....فسألت في أحياء العرب من المرجو سيبه، المأمون غيبه، .....مات الوافد، وغاب الرافد، ومثلك من سدّ الخلة، وفكّ الغلة"(١) أرادت المرأة أن تظهر حجم المعاناة التي عانتها في رحلتها للوصول إلىٰ "عبد الرحمن"، وساعدتها المقابلة بين(ترفعني رافعة، وتخفضني خافضة) علىٰ إبراز الألم، وهي كناية عن بُعد المسافة مع عدم وجود الراحلة الممهدة، كما ساعدها جناس الاشتقاق بين (ترفعني رافعة، وتخفضني خافضة)، والجناس اللاحق بين (بملحات وملمات، سيبه وغيبه، الوافد والرافد)، والجناس المضارع بين(الخلة والغلة، المأمون والمأمول) علىٰ إبراز ذلك، فإسناد الرفع والخفض إلىٰ اسم الفاعل (رافعة، خافضة) مجاز عقلي، علاقته المفعولية، فالله عز وجل هو رافع النجاد وواهد الوهاد، ولكن لما أرادت أن تبالغ في وصف مشقة السفر والسير في طرق غير ممهدة اشتقت من لفظ الفعل "من شأن العرب أن يشتقوا من لفظ الشيء الذي يريدون المبالغة في وصفه ما يتبعونه به تأكيدا وتنبيها علىٰ تناهيه"(٢) وزادت المبالغة تأكيدا تنكير المسند إليه(رافعة، خافضة) للتعظيم في الأولىٰ والتحقير في الثانية مع التكثير

(١) -بلاغات النساء ص١٠٥: ١٠٦

(٢) - المطول ص٥٨

والإبهام، والجناس المضارع واللاحق تماثل في الحروف مع اختلاف حرف وهذا يتبعه تشابه معنوي دلالي، فالمكان المُلح: الضيق، والأمر الملم: النازلة الشديدة من شدائد الدهر ونوازل الدنيا(١) بينهما تقارب، فالطرق غير الممهدة والأماكن الضيقة العسرة مع نوازل الدهر وشدائده تسببوا في شقاء المرأة وهزالها وحزنها، فلذلك سألت عن المرجو عطاءه، المأمونة بواطنه، فلا يظهر عكس ما يبطن، فـ(السيب والغيب) (٢) بينهما جناس، والجناس اختلاف في المعاني إلا أن هناك رابطا وجامعا، والمقام مقام مدح، وهذا يقتضي أن تذكر المرأة الصفات النفسية التي تخص هذا المعنىٰ، فالشخص المرجوّ للعطاء والمنح غالبا ما تخلص سريرته من الشر والخديعة، فيؤمن غيبه، ويؤمل عطاءه؛ والمرأة لم تستجدِ؛ فلذلك عللت احتياجها بموت من كان يقضي حاجاتها ويعينها، فالجناس بين (الوافد والرافد) لا يوجد عنه حولا؛ لأن المرأة تحتاج إلىٰ من يقيم شؤونها، يفد عليها بلوازمها، ويوجد معها معينا لها وسندا، فإن لم يوجد ذلك كان علي الدولة ومتولي أمرها القيام بهذا الدور؛ فلذلك لجأت المرأة إلىٰ "عبد الرحمن" واستنفرت فيه صفة العطاء المشهور بها فقالت: (ومثلك من سدّ الخلة، وفكّ الغلة) تريد بـ"مثل" المخاطب "عبد الرحمن"، ولم تعرض بغيره، فكأنها جردت منه

(١) – لسان العرب مادة(لمم).

(٢) – السيب: العطاء، والغيب: وهو كل ما غاب عن العيون سواء، كان محصلا في القلوب، أو غير محصل. لسان العرب مادة(سيب)وغاب عني الأمر غيبا: بطن. لسان العرب مادة(غيب).

إنسانا آخر مساويا له في العطاء والبذل تخاطبه وتحثه علىٰ مد يد العون لها، كما جانست بين(الخلة والغلة) فالخلة: كناية عن الحاجة والفقر، فأصل الخلة: هي الثقب الصغيرة والفرج بين الشيئين(١)، والمعطي كأنه يسد الثلمة والخلل التي تركها موت الوافد وغياب الرافد، و(فك الغلة) استعارة للدَّيْن وليست من حرارة العطش وشدته كما ذكر محقق الكتاب بدليل ترشيح الاستعارة بـ(فك) وقولها:(سدّ الخُلّة)أيضا، فالحاجة تُحوج إلىٰ الدين، فالغلة :القيد، ولما كان الدين كالغُلّ في العنق يلزم صاحبه القيام به، جُعِل لزومه له كالقيد اللازم له، وكما هو ظاهر من تناسل المعاني وتواشجها أن الجناس لم يأت حلية لفظية، ومحسنا بديعيا وحسب، فالمعاني تدين في هذا المقام إلىٰ التجنيس، وبينها موافقة وموازنة.

وفي مقام الهجاء والأجوبة الحادة المسكتة يكون للجناس دور مهم في قرع أذن المهجو بما يكره ومن ذلك ردّ "آمنة بنت الشريد" علىٰ "الأسود الهلالي" حينما سمعها تدعو علىٰ "معاوية"فلعنها، فهجته قائلة: "اخسأ يا هامة الصعل، ووجه الجعل، فأذلل بك نصيرا، وأقلل بك ظهيرا"(٢) هجت المرأة "الأسود" بأوصاف حسية ولكنها لم تستقص جميع الأوصاف، وتتعمق في سرد الدقائق والتفصيلات، بل وصفت ما يعبر عن الكل؛ لعجلتها فقد عفا عنها "معاوية" وأمرها بالخروج من المجلس، فلجأت إلىٰ أسلوب التشبيه لوصف الأسود، فشبهت هامته بهامة الصعل، وهو دقة الرأس والعنق

(١) – لسان العرب مادة(خلل).

(٢)–بلاغات النساء ص١٣٥

مع نحول الجسم، ووجهه بوجه الجعل وهو دابة سوداء دميمة من دواب الأرض[1] "فشبهت الأعلىٰ بالأدون إذا أردت ذمه"[2]، وتخصيص هذه الأوصاف الخِلقية وتناولها بالهجاء؛ للزومها الموصوف فلا يستطيع تغييرها، والجناس اللاحق بين (الصعل والجعل) لم يكن حلية لفظية أو إظهارا لمقدرة لغوية علىٰ التلاعب بالألفاظ وجمعا للأقران والنظائر المتوازية وزنا، بل إن المعنىٰ والمقام يتطلب ويستدعي هذه الألفاظ المتماثلة وزنا وحروفا لتكون أنغم وأعذب في سمع المهجو فتستقر في نفسه، ويرىٰ حقيقتها فلا يلتفت لأحد بهجاء أو سبّ، ولم تكتف بالهجاء الظاهري بل تغلغلت إلىٰ الصفات النفسية، فجانست جناسا لاحقا بين (أذلل و أقلل) وبين (نصيرا وظهيرا)جناسا ناقصا تعبيرا بالخبر في موضع الإنشاء للدعاء علىٰ مَن يتخذ "الأسود" ظاهرا ونصيرا، فالصفات الجسدية الظاهرة هنا دليل علىٰ مخبره ومعدنه، فمن يحتاج النصر والغلبة لا يلجأ إلىٰ دميم ناحل يُستخَف به ويستهان.

ثالثا: الطباق:

ماجت أجوبة النساء وكلامهن بالصراع، والأخذ والرد، وإثبات الحق، ورد الشبهة، والانتصار للرأي، لما اتسمت به الفترة الزمنية التي اختار منها المؤلف نصوصه، وهي الفترة التي تلت موت الصّدّيق إلىٰ تولي "معاوية" للخلافة، والتي عنونت في الأدب باسم العصر الإسلامي والعصر الأموي،

(١) – لسان العرب .مادة(صعل وجعل).

(٢) – العمدة١/ ٢٩٠

وما شهدته هاتان الفترتان من مقتل الخلفاء الراشدين، ثم مقتل ريحانتي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فكان الكتاب مختارات لرثاء الأزواج لأئمة الإسلام، أو خطبا لنساء أديبات فصيحات بليغات وفدن علىٰ "معاوية، ودار بينهما حديث، جرىٰ فيه ذكر سيدنا "علي" كرم الله وجهه، فانتصرت هؤلاء النسوة له؛ لأنهن وجدن فيه القدوة والعدل، وقرابة بيت النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وتبشيره بالجنة، كل هذا جعلهن يرينه الأحق بالخلافة، فأحببنه حبا صادقا، وتدفق هذا الحب علىٰ ألسنتهن في مواجهة الخليفة، وكان أسلوب الطباق وسيلة لإبراز علائق عديدة نفسية ووجدانية وسياسية عن معنىٰ الموت، والفقد، وانكسار الروح، والوهن، والتصادم الذي يعمل علىٰ توليد نوع من المفارقة "وهذا التصادم يولد الإحساس بالتناقض حينا، والانفراج حينا آخر"[1]، وقد كثرت أساليب الطباق وتنوعت، والبحث ليس بصدد إحصاء محوسب لهذه الظاهرة؛ لأن هذه النصوص نفثات صدور قذفت بها ألسنة الثكالي علىٰ فقد عزيز، أو الانتصار لرأي وفي هذه المقامات التي تبرز فيها العاطفة قوية متأججة لا يتعمل اللسان، وتتكلف النفس لإيراد أسلوب بعينه، بل تنثال العبارات والألفاظ جزلة "والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنىٰ لمعنىٰ كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنىٰ

(١) – النص المشكل.د. محمد عبد المطلب، ص٣١٩، كتابات نقدية ٩٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، يوليو١٩٩٩م.

وإبرازه"[1]، وما ورد في بلاغات النساء من أساليب متطابقة يرجع كما سبق إلىٰ حال التوتر والحزن، الذي تسبب عنه قصر النَّفَس، وتزاحم الأفكار وتدافعها لتخرج في تراكيب فعلية قصيرة متتابعة مدمجة بأساليب الطباق التي تفرق بين حالين كما في قول السيدة "عائشة" عن أبيها: "يريش مملقها، ويفك عانيها، ويرأب صدعها، ويلم شعثها، حتىٰ حلته قلوبها، واستشرىٰ في دينه، فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتىٰ اتخذ بفنائه مسجدا يحيىٰ فيه ما أمات المبطلون"[2] لم تأت المتطابقات هنا علىٰ النسق المألوف من وجود ضد في جملة ووجود المطابق له في أخرىٰ، أو تتابع صفات متطابقة موصولة بعاطف، لاستحالة اجتماعها في ذات واحدة، أو مجيء الضد ومطابقه بين المضاف والمضاف إليه في جملة واحدة كما في: "يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك"، ولكن في هذا النص ورد الطباق بين الفعل ومفعوله (يريش مملقها، ويفك عانيها، ويرأب صدعها، ويلم شعثها، يحيىٰ فيه ما أمات)، والغرض من ذكر المفعول هنا إفادة تلبس الفعل بالمفعول من جهة تعلقه به، ووقوعه عليه، أي: الإخبار بوقوع الريش علىٰ المملق، والفك علىٰ المُعنّىٰ، والرأب علىٰ المصدوع، واللم علىٰ المشعث، والإحياء علىٰ ما مات وذهب، وتعلق هذه الأفعال بالمفعول[3]، لئلا يتوهم تريش الغني، وفك

(١) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.الحسن بن رشيق القيرواني، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، ١/ ١٢٩، دار الجيل.بيروت.د.ت.

(٢) – بلاغات النساء ص ٣٦

(٣) – ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢/ ١٢٢

الحر، ورأب الملتئم، ولم المجتمِع، وإحياء الموجود، فتعلق هذه الأفعال بمفعولاتها ليفيد تعلقها بها دون غيرها، ووقوع الفعل من الصَّدِّيق علىٰ المفعول المخصص ذكره دون غيره، فالثابت وجود هذه الأفعال من "الصديق" ولكن المخاطب يجهل تعلقها بذوي احتياجها، فالكلام مع خالي الذهن عن تريش المملق، في الأول وليس عن خالي الذهن عن التريش مطلقا، فالمصدر (الريش، الفك، الرأب، واللم، والإحياء) الذي هو مدلول أفعال "الصديق" أوقع علىٰ المملق، والمعنَّي، والمصدوع، والمشعث، والميت وأثرت فيهم، وهذا يقتضي مدحه لوقوع أفعاله علىٰ مستحقيها وتلبسها بهم دون غيرهم ممن لا يحتاجون، فأوقع الفعل وعلّقه بمفعول به مضاد له في المعنىٰ فالإملاق يتلاشىٰ في التريش، والمُعنّىٰ يذهب أسره في الفك، و الصدع يجبر بالرأب ، والشعث يهذب ويجتمع باللم، والمندثر المتلاشَىٰ يتجدد ويكرر، وقد تمكنت أم المؤمنين من إحداث تأثيرات انفعالية مباشرة وغير مباشرة بأقل قدر من العلاقات اللغوية والأدوات التعبيرية، موجزة أفعال أبيها ومُنجزاته في أفعال قليلة وإن كانت متسعة اتساعا بالغا علىٰ مستوىٰ الناتج الدلالي[1]، فقد أفصحت هذه المتطابقات عن جوّ مشحون بالصراعات والصدامات؛ ولذلك تعددت أفعال الصديق لكفّها وفكّها باعتباره طرفا محايدا نزيها عن مطامع الرياسة وشهواتها، يعمل لإعلاء كلمة الحق، وإصلاح الدولة الإسلامية، وتجلىٰ هذا في قولها: "فلقد

(١) - ينظر النص المشكل ص ٣٢٠ بتصرف

كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها، وللآخرة معزا بإقبالك عليها"[1] فالتوكيد بـ(لام القسم) و(قد) لتحقيق الخبر؛ لأن المخاطبين كأنهم نسوا فضل "الصديق" وجحدوه، أو شكوا فيه فنالوا منه بعد موته، فنزلوا منزلة المنكر الذي يحتاج إلىٰ تأكيد الخبر، وتضمن هذا مقابلة بين حالين مختلفين تمام الاختلاف، فجسد الدنيا والآخرة وأبرزهما في صورة إنسان عزيز وآخر ذليل، يُدني العزيز بإقباله عليه، ويدبر عن الذليل لاغترابه عنه لما خبره من أنماط سلوكه، وتأرجح أفعاله بين الصحة والخطأ، والاستقامة والاعوجاج، واختفاء الغاية التي من أجلها خلق من منهاج حياته، فمضىٰ الصديق قدما إلىٰ غايته يتجاذبه شيئان إذلال الدنيا بإصلاح اعوجاج أهلها وإلزامهم بما يعدونه مكارها، وفي المقابل عزوف عن شهواتها والتوجه بالقلب إلىٰ الله تعالىٰ وإخلاص النية في الإصلاح، وهذا ليس بالأمر الهين الذي يلين مقاده، وتستحكم أدواته، ولكنه يحتاج إلىٰ مراس وتدريب وقمع للنفس وتهذيب.

ومن الجوابات التي تقطع لسان الواشي والنمام، وتدحض كيد الخائن، وتوغر صدره جواب أم المؤمنين "عائشة" حين بلغها إن قوما يشتمون سيدنا محمدا ﷺفقالت: "قطع الله عنهم العمل، فأحب أن لا يقطع عنهم الأجر"[2] ينم الجواب عن سرعة بديهة، وحسن تصرف، وبعد نظر إلىٰ عواقب الأمور، فالناقل للكلام يريد أن يستثير حفظيتها ويوغر صدرها، فأجابته بأسلوب الحكيم مغالطة زعمه، فطابقت طباقا سلبيا بين (قطع، ولا

(١) – بلاغات النساء ص ٣٩

(٢) – السابق ص ٤٧

يقطع) وأبرز الفعل (قطع) معنىٰ: التحول والتبدل والانتقال والانفصال عن الدنيا، وإسناده إلىٰ اسم الجلالة لحتميته، وفيه تيئيس للمنافق النمام من تحقق مأربه بإيقاع الوقيعة، وإيغار الصدر، ولفت الأسماع والأذهان إليه، وأبرز الفعل (أحب) يليه الفعل المنفي (لا يقطع) عدم انقطاع الخير عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وأن الانقطاع المثبت له انقطاع الشقاء والكد والتعب بالوجود في الدنيا، أما الخير فلا ينقطع عنه أبدا صلىٰ الله عليه وسلم، وإن كان هناك ما يوهم أنه يسبب له ولأهله التعاسة والشقاء فهو خير له وأجر.

وروي أن عائشة كانت تقول "مكارم الأخلاق عشر، تكون في العبد دون سيده، وفي الخامل دون المذكور، وفي المسود دون السيد، صدق الحديث، وآداء الأمانة، والصدق، والصبر في البأس، والتذمم للصاحب، والتذمم للجار، والإعطاء في النائبة، وإطعام المسكين، والرفق بالمملوك، وبر الوالدين"[1] عندما تتناقض مبادئ الواقع الذي يفرضه ضرورة الانخراط مع المجتمع المتلون بألوان كثيرة مع مبدأ الرغبة الذي يسعىٰ إلىٰ تأكيد الذات وحرية الاستقلال عن أعراف المجتمع والمخالفة له والخروج عليه، فتقلب الحقائق رأسا علىٰ عقب، وتنحاز المكارم إلىٰ جهة مناقضة للجهة التي اعتاد التفكير الرجعي الظالم أن ينسبه إليها، جهة مخالفة للتوقع، وقد أبرز الطباق هذه المناقضة والهوة الفارقة بين العبد وسيده، والخامل والمذكور، المسود والسيد، ومبدأ الاختلاف بينهما، فالمظنون أن السيد أفضل من عبده دائما؛ لأنه سيد، والمذكور التي طارت شهرته في الآفاق أفضل وأنبه من الخامل ذي

(١)- بلاغات النساء ص ٥٣

الفضل عديم الذكر، والسيد الذي له السيادة والفضل والمنزلة أفضل من المسود الذي يسوده غيره، وهذا اتباع يقلد فيه الناس بعضهم البعض دون الانتباه إلىٰ ما قد يكون من فضائل مخالفة للتوقع ممن لا يظن فيه الخير أو يرجَىٰ منه، فأثبت الطباق هذه المخالفة، وحقق الفضائل لمن يستحقها دون نظر إلىٰ مكانة سابقة وفضل متأثل.

وفي مقام الحزن والتحسر والخذل والغدر تهدد السيدة "أم كلثوم" أهل الكوفة: "فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا"(١) لم تأت نبرات الحزن والتهديد تلقائية كيفما اتفقت، ولكنها تقوم علىٰ القصد والاختيار باستدعاء النص القرآني العظيم والاقتباس منه"فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "(التوبة: ٨٢) ولكن بالعدول عن النسق الترتيبي، فقدمت وأخرت بما يناسب مرادها، فالبكاء كناية عن حزنهم، والضحك كناية عن فرحهم، وقدمت البكاء الكثير علىٰ الضحك القليل؛ لأن ما قاموا به من فعل شنيع (تسببهم في مقتل الحسين) حري أن يجعلهم ينسون الضحك القليل، ويداومون علىٰ البكاء، وإذا داموا عليه كثر، فأبرزت المقابلة بين الحالين تهديدهم والسخرية من واقعهم، ومعناه: فسيبكون كثيرا، وسيضحكون قليلا، وعدل عن صيغة الخبر إلىٰ لفظ الإنشاء "للدلالة علىٰ أنه حتم واجب لا يكون غيره"(٢) .

(١) – السابق ص٧٦

(٢) – الكشاف ص٤٤٤

وفي مقام تحفيز جيش "علي" وتشجيعه علىٰ القتال والصمود في مواجهة أهل الشام، يعج أسلوب "أم الخير"بالمتطابقات فتقول:"صبرا معشر الأنصار والمهاجرين، قاتلوا علىٰ بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدىٰ، وباعوا البصيرة بالعمىٰ، عما قليل ليصبحن نادمين حتىٰ تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار"[1] المقام مقام حثّ، واستنهاض، وبيان للأفضلية بدليل، وتصبير في مواجهة جيش غاشم، ولا يتأتىٰ الصبر والتحمل إلا ببيان الفرق بين الفريقين، والتذكير بمكافأة النصر، وكان للطباق بين (باعوا واشتروا، الآخرة والدنيا، الضلالة والهدىٰ، البصيرة والعمىٰ، الحق والباطل، والجنة والنار) دور بارز في إظهار البون بين الفريقين، وبيان أفضلية جيش "علي" لأنهم قصدوا الآخرة فثمّنوها بأنفسهم وهي أغلىٰ الأثمان، وتخيروا الهدىٰ والبصيرة، فكانت النتيجة اهتداء إلىٰ الحق وسكن في الجنة، وفي المقابل فإن جيش "معاوية" في نظر المرأة سيلقىٰ ضد ما حاز جيش "علي"، ولا خيار ثالث أمامهم، فالنصر والفوز بالجنة لا يتحقق إلا من خلال الابتلاء والاختبار الحافل بشتىٰ المتناقضات.

وترد امرأة "أبي الأسود الدؤلي" عليه إهانته إياها بما يُسكت، فتثلبه صفات العربي الأصيل، فتقول:"ما علمته إلا سؤلا جهولا، مُلِّحًا بخيلا، إن

(١) - بلاغات النساء ص٩٨

قال فشر قائل، وإن سكت فذو دغائل[1]، ليث حين يأمن، وثعلب حين يخاف... أكرم الناس عليه من أهانه، وأهونهم عليه من أكرمه... فلما كان الرواح، جاءت ومعها ابنها قد احتضنته، فلما رآها أبو الاسود قام إليها لينتزع ابنه منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود لا تعجل المرأة أن تنطق بحجتها، قال يا أمير المؤمنين: أنا أحق بحمل ابني منها، فقال له معاوية: يا أبا الاسود دعها تقل، فقال: يا أمير المؤمنين حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، فقالت: صدق والله يا أمير المؤمنين، حمله خفا، وحملته ثقلا، ووضعه بشهوة، ووضعته كرها"[2] جردت المرأة زوجها من الفضائل النفسية التي يمتدح بها الرجال وهي العقل والشجاعة والكرم، ولم تكتف بسلب الصفات المتأصلة، بل تطرقت أيضا إلىٰ الصفات العرضية وهي حاله وقت القول والصمت، والأمن والخوف، وتصرفت في الهجاء فأبرزت المعاني في صور مختلفة، فساعدها الطباق بين(قال وسكت، يأمن ويخاف) علىٰ إبراز هذه المفارقات في شخصيته، فـ"الدؤلي" علم ثقة معروف، حدّث عن صحابة رسول اللهﷺ، وقرأ عليهم، وهو من الدهاة، الحاضري الجواب، والبخلاء[3]

(١) – الدغل: الحقد المكتتم، والداغل الذي يبغي أصحابه الشر يدغل لهم الشر أي يبغيهم الشر ويحسبونه يريد لهم الخير.لسان العرب مادة (دغل).

(٢)– بلاغات النساء ص ١١٥

(٣) – ينظر سير أعلام النبلاء. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصاغرجي، ٤/ ٨١، ط١١، مؤسسة الرسالة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

"والبخل أسوأ الأخلاق وأجلبها لسوء الأحدوثة"[1]ولهذا أسقطت زوجه هذه الصفة علىٰ علمه، فجعلته سؤلا جهولا، وهو كناية عن شكه، وحيرته، وتردده، فلا يكفّ عن السؤال، كما حقرته في جميع أحواله قوله وسكوته، أمنه وخوفه، فلا يُرجىٰ منه خير في أي وقت، فجعلت بداهته وحضور جوابه شرا، ثم صورته في صورة قبيحة، فشبهته بالأسد، تشبيها مقيدا فاحترست بـ(حين يأمن) كيلا يتوهم الذهن ويتبادر إليه معانىٰ الشجاعة والنجدة والبسالة وشدة الإقدام والصولة وقت الشدة والاحتياج إلىٰ العون، كما شبهته بالثعلب، وهو موصوف بالروغان والخبث، ويضرب به المثل في النذالة والدناءة والجبن، واحترست بـ(حين يخاف) لدفع توهم شجاعته ومواهجته العدو؛ فلفرط خبثه واحتياله يجري مع كبار السباع، ثم جاء أسلوب العكس والتبديل مدمجا بالتقابل بين (أكرم وأهانه، أهونهم وأكرمه) لتثبت له نقص العقل والتمييز، فلا يكاد يفرق بين المكرم والمسيئ، وعندما جاءت الزوج تحمل ابنا لها انتزعه أبو الأسود منها معللا أحقيته بالولد لسبق حمله ووضعه، فأبرز الطباق(حملته ووضعته، تحمله وتضعه) عدم نزع صفة الحمل والوضع من طرف وإثباتها للآخر، ولكن أثبت التقدم والسبق لطرف علىٰ آخر، فصدقت الزوج علىٰ كلامه ورددت قوله:(حمله وحملته، ووضعه ووضعته) مع تغاير الحال التي كان عليها ذلك الحمل والوضع، وأبرز الطباق (خفا وثقلا، بشهوة وكرها) المفارقة بين الحالين، وتلاشي حمل الزوج

(١) – البخلاء. أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، عناية: بسام عبد الوهاب الجابي، ص ٧٤، ط١، دار ابن حزم ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

ووضعه في مقابل حملها ووضعها، وإذكاء الشعور بالرحمة والعطف نحو مَنْ حمل ثقلا، ووضع كرها، وهكذا استطاعت المرأة أن تتغلب بحسن بيانها، ونصاعة حجتها، وقوة دليلها علىٰ السيد المجرب "الدؤلي"، فلم تلجأ إلىٰ إبطال قول أو تكذيبه، بل سردت رأيها فيه أولا، وعندما وقع حوار مشاكس بينها وبين زوجها لم تتعمد نقضه بل بنت عليه مبينة الفرق بين موقفه وموقفها بما يضمن لها الانتصار والغلبة بالحجة، وتصرفت في القول فاستعانت بأسلوب الطباق والعكس والتبديل والتشبيه، وكان للطباق حظ وافر؛ لأن المقام هجاء وسلب وشكوىٰ ظلم واقع علىٰ المرأة أدىٰ إلىٰ طلاقها.

وعندما قتل سيدنا "عثمان" ﷺ قامت امرأته ثكلىٰ حرّىٰ عبرىٰ، فحمّلت قومه دمه، وأفاضت في ذكر مناقبه بما قطع ألسنة السامعين عن الرد عليها، فقالت:"ولا رأي لأهله في تجهيز البعوث، فأقام يمدكم بالرأي، ويمنعكم بالأدنىٰ، يصفح عن مسيئكم في إساءته، ويقبل محسنكم بإحسانه، ويكافيكم بماله، ضعيف الانتصار منكم، قوي المعونة منكم، فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته، وآجركم أرسانكم آمنا، جرأتكم وعدوانكم فأراهكموا الحق إخوانا، وأراكموه الباطل شيطانا في عقب سيرة من رأيتموه فظا، وعددتموه غليظا، قهركم منه بالقمع، وطاعتكم إياه علىٰ الجدع، يعاملكم الحنة، وتحونكم[1] بالضرب، وكان والله اعلم بآدابكم ومصالحكم، فلله هو كأن قد

(١) عريكته: الطبيعة ، يقال : فلان لين العريكة إذا كان سلسا مطاوعا منقادا، قليل الخلاف والنفور، ورجل لين العريكة، أي لين الخلق سلسه. لسان العرب .مادة(عرك)، آجركم أرسانكم: أخبر عن مسامحته وسجاحة أخلاقه وتركه التضييق علىٰ أصحابه. لسان العرب .مادة(رسن)، الجدع: الذل.لسان العرب. مادة(جدع)

نظر في ضمائركم، وعرف إعلانكم وسرائركم، فحين فقدتم سطوته وأمنتم بطشته ورأيتم أن الطرق قد انشعبت لكم، والسبل قد اتصلت بكم، ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين، فعدوتم عدوة الأعداء، وشددتم شدة السفهاء علىٰ التقي النقي، الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانا، الثقيل عند الله ميزانا"(١) اختفىٰ الأسلوب الوصفي التصويري الذي يقوم علىٰ الخيال والتشبيهات والاستعارات، وحل محله الأسلوب الخبري التقريري، بإعادة ما هو معلوم علىٰ أسماعهم لينزجروا ويُستعتبوا لتفريطهم في الدفاع عن خليفة المسلمين، وإذا لم يكن منهم دفاع كان الواجب أن لا يساعدوا علىٰ قتله، ولكن غلبة الهوىٰ عليهم، وظنهم السوء بسيدنا "عثمان" استضعفوه، وقد أبرز الطباق بين (يمدكم ويمنعكم، مسيئكم ومحسنكم، إساءته وإحسانه، ضعيف الانتصار، قوي المعونة، فأراهكموا الحق إخوانا، وأراكموه الباطل شيطانا) قلق الشخوص الموجه إليهم الكلام في وقت تأزمت فيه العلاقة بين الفرد والخليفة، فقد سبق قتل سيدنا "عثمان" قتل سيدنا "عمر" وهذا يستتبع أن تكون الشخصيات مفككة مغتربة، لا انتماء لديها لوطن أو دعما لخليفة، شخصيات تعاني صراعات وتناقضات وانفصالات، وهذا ما قوّىٰ ورود المتطابقات بكثرة في مدىٰ محدود من التراكيب، فلا اتفاق ولا تعاون ولا مؤازرة، بل إن فعل الخير يقابله إساءة مهما اجتهد الخليفة، فكان ينصحهم

الحنة: الهيبة لسان العرب.مادة(حنن)، وتحونكم: أذلكم وأهانكم.لسان العرب.مادة(حون).

(١)- بلاغات النساء ص١٤٤

ويتخولهم بالموعظة، ويمنعهم بأدنىٰ العقوبة، ولم يستعن عليهم أبدا أو ينتقم ممن خطأ وأساء، وفي مقابل ذلك كان يستعين بكم ويعاونكم، وجعلكم قادة أنفسكم، ولم يضيق عليكم خناقا، فأسأتم الظن به وعددتموه شيطانا، رغم صدقه ومعاملته لكم بالحق إخوانا، ثم وضعت المرأة حكم سيدنا "عثمان" في موازاة المناقضة مع حكم سيدنا "عمر"، ولم تقصد بالمناقضة هنا تناقض المبادئ والشرائع التي ساس الخليفتان بها حكم المسلمين، ولكنها أرادت الطريقة المتبعة في تسويس الرعية، فقد كان مِن الفاروق ﷺ قمع للرعية، وشدة علىٰ أمرائه في الأمصار المختلفة، وتقص كتب الأدب ذلك، فكان يحاسبهم محاسبة شديدة، ويسأل عن ذممهم المالية وممتلكاتهم، حتىٰ وصل الأمر أن أوجع الصحابي" أبا هريرة" ضربا بالدَّرة، وأخذ إحدىٰ نِعال "عمرو بن العاص"؛ لأنها مستحقة لبيت مال المسلمين(١)، ولذلك تعجبت المرأة من فعله وأكبرته وأعظمته (فلله هو)، لهيمنته علىٰ الرعية منذ اللحظة الأولىٰ، فبالغت في ذلك، وغالت غلوا مقبولا بأن جسدت الضمائر (كأن قد نظر في ضمائركم) وجعلتها مادة تُرىٰ بالعين المجردة، وهو كناية عن دربته وحنكته، وأبرز الطباق بين (إعلانكم وسرائركم) قوة الهيمنة، والسيطرة، والإمساك بأزمة الأمور، وممارسة خبرته بأنواع النفوس، وما ينبغي عمله في كل موقف، وبعد موت "الفاروق" أمنت الرعية بطشه وسطوته، ورأوا أنهم تمكنوا وتملكوا، وأصبحت لهم حرية التصرف، فبغوا واعتدوا، وكان أول

(١) – العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ١/ ٤٨، ٤٥، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر.د.ت.

عدوهم علىٰ خليفتهم، وأبرز الطباق بين (انشعبت واتصلت، يصلح والمفسدين) أن سيرة الفاروق ونهجه أصبحا عبأ ثقيلا وجب التخلي عنه، والتمسك بمزاعمهم ومعتقداتهم الفاسدة، كما أبرز تخبط أفعالهم، وقطيعتهم مع وجوب طاعة أولي الأمر، ولهذا برز ضمير الخطاب الموجه إليهم، وحضر حضورا مكثفا مسندا لأفعالهم (فقدتم، آمنتم، رأيتم، لكم، بكم، ظننتم، عدوتم، شددتم) وفي المقابل لم تبرز أفعال لسيدنا "عثمان"، فسلبت عنه الأفعال بسبب تجمع قوىٰ الشر عليه، وأُبرزت ذاته من خلال النعوت اللازمة له والإيقاع، فجانست بين (التقي والنقي) ليكون مرتكزا إيقاعيا يلفت الأسماع والنواظر إلىٰ هاتين الصفتين، ثم طابقت بين (الخفيف والثقيل) نتيجة للصفتين المتقدمتين، فالتقي نقي من أمراض القلوب وعلاتها، فتنشط جوارحه للطاعة، ومنها الحال التي وجدتموه عليها وقت قتله خفيفا لسانه بكتاب ربه عز وجل، والحال التي تنتج عنها من ثقل ميزانه.

ثالثا: الاقتباس:

من الظواهر البلاغية التي تستحق التوقف عندها؛ لبروزها بكثرة في بلاغات النساء وأجوبتهن خاصة في مقام الرثاء والانتصار للرأي، فقد تضمن الكتاب خطبا لأم المؤمنين"عائشة" ترد وتدفع عن أبيها قالة السوء، كما تضمن خطبا قيلت عقب أحداث دامية كمقتل "عمر" و"عثمان" و"الحسين"، وخطبا لنساء وفدن علىٰ "معاوية" كن أنصار لـ"علي"، وقد وشيت هذه الخطب بآيات القرآن العظيم كاملة أو ببعض من آيّه، فقويت الحجة، وانبلجت أدلتها، وسطع برهانها، مما أخاف الخصم، وقطع لسانه عن الرد والجدل رغم كونه أهلا للجدل، كما اكتست الخطب بهذه

الاقتباسات رزانة وجزالة وفصاحة استحق معها وقار القلوب؛ لكون السامع ذي ذوق وقريحة، ومهيأ لإدراك معانيه، كما كان الاقتباس من القرآن العظيم يمثل طابعا أو سمة خاصة امتاز بها أدب عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، لكون القرآن الكريم هو مصدر تشريع سنن حياتهم، يحل منهم في القلوب والعقول مختلطا بدمائهم وفكرهم، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان هذا أس استناد النساء عليه في خطبهن، وقد عزا محقق الكتاب د/ عبد الحميد هنداوي ذلك إلىٰ "غير أن الذي يثير العجب حقا هو كثرة الاقتباس والتضمين لكثير من خطب النساء لآيات القرآن الكريم. فلا أدري أيرجع ذلك لرهافة حس النساء وشدة تأثر الحافظات منهن به عن الرجال؟ أم يرجع ذلك لقصر باعهن في القول، ولجوئهن إلىٰ ما يسعفهن من المحفوظ من القرآن الكريم؟ لعل الأول هو الأرجح وذلك لقوة تأثير القرآن الكريم علىٰ ذوي القلوب الرقيقة الرحيمة"(١)، أما رهافة الحس فهذا شيء تمتاز به النساء، ولا ينفردن به، والشعر الرومانسي لكثير من الرجال شاهد صدق علىٰ ذلك، وأما شدة التأثر به فالجبل يخشع ويتصدع من خشية الله، وكان "الصديق" ﷺ رجلا رقيقا لا يملك نفسه إذا قرأ القرآن الكريم، وعندما شكت "سودة بنت عمارة" لـ"علي" عامله كتب إليه مستهلا كلامه بآي الذكر الحكيم؛ لأنه يراه أقوىٰ حجة، وأوضح بيانا، وأغنىٰ عن خطبة طويلة، فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي

(١) – بلاغات النساء ص٢٣

ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [1] (الأعراف:٨٥) و(هود٨٥: ٨٦)، كما كثر اقتباس الخطباء من القرآن الكريم[2]،وكتاب "الاقتباس" لـ"الثعالبي" خير شاهد علىٰ أن الاقتباس لم يختص بالنساء للأسباب التي ذُكرت، فأمثلة الكتاب كلها لرجال، أما قصر باع النساء في القول فمن يطالع الكتاب يدهش من قوة المُنَّة والمعارضة، ويقف طويلا أمام التراكيب الوعرة ليفض مغاليقها، فقصر الباع يُقصد به قصر الجمل، وقصر النفس في بعض المواطن، والشاهد خير دليل علىٰ فصاحة النساء وبلاغتهن، فقد تعجب معاوية من سجع امرأة أبي الأسود الدؤلي وفصاحتها، وبُهت "الأسود الهلالي" من حدة لسان "آمنة ابنة الشريد"[3] والأمثلة أكثر من أن تُحصىٰ.

ومن كلام السيدة "زينب " ترد علىٰ "يزيد": "صدق الله ورسوله يا يزيد،﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الروم:١٠]. أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارىٰ أن بنا هوانا علىٰ الله وبك عليه كرامة، وأن هذا لعظيم خطرك فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفيك جذلان فرحا حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك، وقد أمهلت ونفست وهو قول الله تبارك وتعالىٰ:"﴿وَلَا

(١)- بلاغات النساء ص٨٩

(٢) - ينظر العقد الفريد ١/ ٦٠،٥٧،٥٥،٥٣، وغيرها.

(٣)- بلاغات النساء ص١١٧، ١٣٥

﴿يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ [سورة آل عمران:١٧٨].....وسترد علىٰ رسول الله ﷺ برغمك، وعترته ولحمته في حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث وهو قول الله تعالىٰ:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ [سورة آل عمران:١٦٩]....وسيعلم من بوأك، ومكنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحكم الله، والخصم محمدﷺ ، وجوارحك شاهدة عليه ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ٥٠﴾، أيكم "﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ٧٥﴾"(١)" ورد الاقتباس من القرآن الكريم في الخطبة علىٰ الترتيب الآتي للسور(الروم:١٠) و(آل عمران:١٧٨، ١٦٩) و(الكهف:٥٠) و(مريم:٧٥)، اعتمدت السيدة "زينب" علىٰ جهارة التأثير حين بدأت كلامها بالتقرير"صدق..." لتهديد "يزيد" وتخويفه وإيعاده، فكان خطابها حادا عاليا مدويا، واقتبست من الذكر الحكيم آيات الوعيد والتهديد والتعنيف، فهي لا تخاطب عاطفة السامعين محاولة التأثير عليهم، والوصول إلىٰ قلوبهم، ولكنها تقررهم بما كان من خطئهم، وتعيد علىٰ مسامعهم آيات العقاب الذي ينتظرهم.

ومن كلام "أم كلثوم" حين قتل "الحسين" تذم أهل الكوفة: "وهل فيكم إلا الصلف والشنف، ومُلق الإماء، وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمرعىٰ علىٰ دمنة، وكفضة علىٰ ملحودة ، ألا ساء ما قدمت أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون.....لقد خاب السعي، وخسرت

(١)- بلاغات النساء ٧٠: ٧٣

الصفقة، وبؤتم بغضب الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [سورة مريم:٨٩-٩٠].....أفعجبتم أن قطرت السماء دما، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ .....فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت الثأر، كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد"[1] الاقتباس من القرآن الكريم في الخطبة علىٰ الترتيب الآتي للسور (المائدة:٨٠) (مريم:٨٩ :٩٠) (فصلت:١٦) (الفجر:١٤)، وضعت المرأة يدها علىٰ القرآن الكريم فأخذت منه محافظة علىٰ لفظه مضمنة كلامها قوله تعالىٰ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ واستدعاء النص القرآني في موقف التهديد والإنذار ليهود المدينة ممن أظهروا الإسلام نفاقا في ءاية المائدة، وقصة عاد وثمود وفرعون في ءاية الفجر، وبثه في سياق نذير أهل الكوفة لخيانتهم "الحسين" له تأثير ليس بالهين، إنه بمثابة قرع العصا لهم ليرتدعوا ويرجعوا عن غيهم وضلالهم، أما استدعاء ءايتي "مريم" و"فصلت" فلقصد إبلاغهم التوبيخ علىٰ وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد[2]، والمبالغة في تفظيع فعلهم وتهويله حتىٰ أن الجمادات الكونية العظيمة استبشعت هذا الفعل فأشرفت علىٰ الانهيار والدمار، فلو اجتهدت "أم كلثوم" في حشد ألفاظ العذاب

(١) - بلاغات النساء ٧٥: ٧٧

(٢)- ينظر التحرير والتنوير١٧/ ١٧٠

والتخويف والوعيد ذات القعقعة الصاخبة، وجمع الأساليب التي تفيد التهديد والتخويف حقيقة أو مجازا من خبر وإنشاء ما أفادت ما أفاده النظم القرآني علىٰ وجازته، وفي أخذها من بعض الآية، والإضافة إليها بما يتفق مع مقامها " من محاسن الصناعة البلاغية، وليس فوقها من الكلام ما هو أعلىٰ درجة منها؛ لأنها ممزوجة بالقرآن، لا علىٰ وجه التضمين، بل علىٰ وجه الانتظام به، والله يختص بها من يشاء من عباده"(١).

وسأل "معاوية" عمن يحفظ كلام "أم الخير" التي قالته يوم قتل "عمار بن ياسر" فاستظهر رجل ما قالته قائلا: " .... وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾(الحج:١)، إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة، فإلىٰ أين تريدون؟ رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾(محمد:٣١) .... إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس ثم قالت: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ (التوبة:١٢)صبرا معشر الأنصار والمهاجرين، قاتلوا علىٰ بصيرة من ربكم وثبات من دينكم وكأني بكم غدا لقد لقيتم أهل الشام كـ﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ

(١) – المثل السائر ١/ ١٤٩

﴿(المدثر:٥٠) لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة البقرة:١٦].وباعوا البصيرة بالعمىٰ ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (المؤمنون:٤٠) حتىٰ تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة "[1] ابتدأت المرأة حثها علىٰ الحرب، وتشجيعها لجيش "علي" مقتبسة من القرآن الكريم، مفتتحة بخطاب عام موجه إلىٰ الفريقين المتحاربين بما ينفعهم؛ ليقبلوا علىٰ موعظتها حثا علىٰ الاتصاف بصفة التقوىٰ، وأخذا بالحزم، ومبالغة في تأدية المعنىٰ المقصود، فكأنها أحضرت كل واحد ممن يصلح أن يخاطب وخاطبته بذلك[2] ونادتهم نداء البعيد وإن قربوا تنزيلا لمن سها أو غفل منزلة البعيد[3]، وعللت للأمر بالتقوىٰ بـ" إن زلزلة الساعة شيء عظيم " تحذيرا من أهوال الساعة وما يكون فيها من العذاب، وتذكيرا لهم بأمر معلوم، ثم تواصل الحث والتشجيع متبعة الاقتباس بآخر مؤكد ولكنه حث وتشجيع علىٰ القتال بمعرفة مكانة المثابر علىٰ القتال إما مجاهد أو صابر، ثم ترقت في إلهاب واستنفار حفائظهم ، وبث روح الغلبة والأخذ بالثأر بتذكيرهم بأيام نصرهم وهزيمتهم يوم "بدر" ويوم "أحد"، مواصلة في الحث والتشجيع بتنزيل جيش "معاوية" منزلة أئمة الكفر مبالغة في ذمهم وتوبيخهم وعدم استحقاقهم لما يحاربون من أجله.

---

(١)- بلاغات النساء ٩٦: ٩٨

(٢) - ينظر حاشية المير سيد شريف ص٧١

(٣) - المطول ص٢٤٤

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين،وبعد

فبعد التطواف في نثر "بلاغات النساء" توصل البحث إلى:

– إن المحسنات البديعية التي وردت في الكتاب لم تأت زخرفا متكلفا أو حلية لفظية، بل إن المعنىٰ استدعاها واقتضاها، فأغلب موضوعات الكتاب في الرثاء، والانتصار للرأي، والرد علىٰ أسئلة وهذه المقامات يتغلب فيها صدق العاطفة علىٰ التزييف والتنميق؛ ولذلك ورد السجع والجناس والطباق بكثرة دون تعمل جلب أو تزيين، حتىٰ وإن كانت مجتلبة فالمعنىٰ يطلبها والسياق يستدعيها، تدل دلالة ظاهرة علىٰ المقدرة اللغوية، وبراعة الانتخاب لمفردات اللغة ونظمها في مكانها الملائم لأخواتها في التركيب، فالمقامات التي قالت فيها النساء مقامات مشحونة بالتخالف والصراعات الناشئة عن تفضيل جانب علىٰ آخر، وهذا أدىٰ إلىٰ التخالف علىٰ المستوىٰ الظاهري والداخلي في أساليب الطباق، والتوافق علىٰ المستوىٰ الظاهري والتخالف علىٰ المستوىٰ الباطني في بعض صور الجناس كالجناس التام وجناس القلب، أما باقي صور الجناس فقد كان هناك موافقة علىٰ الصعيد الظاهري للألفاظ والباطني للمعاني بسبب تكرار معظم مواد حروف اللفظة، وهذا التوافق يقابله توافق الأنغام، أو موسيقىٰ الكلام علىٰ الصعيدين اللفظي والمعنوي.

– يلحظ قصر النفس، فالأوزان المتماثلة والفواصل المسجوعة لم تطرد في الخطبة بأكملها، بل يتكرر الوزن أو القافية مرتين أو ثلاثة وذلك محاولة

لإفراغ كل الشحنات العاطفية الصادقة؛ لأن هذه الخطب جاءت بعد مقتل آبائهن وإخوانهن، فالعاطفة صادقة، والحزن ينبع من حبات القلوب؛ لأن القتل كان غدرا وظلما، فهؤلاء النسوة فقدن السند والمدافع ولم يراع العدو منزلتهن؛ فلذلك لجأن إلىٰ بيان فضلهن عاذلات من خذلهن.

- كثر اقتباس السيدات من القرءان الكريم، ليس لسد نقص، أو لقصر الباع في القول، بل إن ءايات القرءان الكريم بمثابة الدليل القاطع والحجة القوية، والبرهان الساطع الذي يلجم الألسنة ويكبح العقل عن الرفض والمناقشة، فهو يغني عن تفصيل يتعسر بيانه وإيضاحه في مثل مواقف الإدانة والتصريح بالظلم، فمن يقرأ خطبهن بدون نسبتها إليهن يدرك أنه أمام أدب إسلامي لكثرة الاقتباس من القرءان الكريم، وهو خصيصة جديدة علىٰ الأدب لظهور الإسلام، فقد كان الشعر يضمّن الأمثال السائرة والشعر، والمثل قد ينغلق معناه علىٰ بعض سامعيه لعدم معرفته بمورد المثل، أو انغلاق معنىٰ الشعر عليه، أما القرءان الكريم فالمغزىٰ المفهوم منه محكم صريح دون مواربة وهذا من شأنه أن يقوي الحجة ويثبت الدليل.

- لم تعقد ألسنة النساء عن الرد، بل كانت بديهتهن حاضرة، وخواطرهن متقدة فجاءت ردودهن مفصحة عن صحة العقل وكماله، وثبات الجنان، ونفوذ الرأي، وهذا ما أسكت السائل لهن في مواطن كثيرة.

- جاء الأسلوب الوصفي مشتملا علىٰ أسلوبي التشبيه والاستعارة، وجاءت معظم الصور التشبيهية حسية، لعقد مقارنات وموازنات أو إيضاح المشبه بمشبه به أوضح في وجه الشبه، فمعظم الصور التشبيهية وعناصرها قريبة، أما الاستعارات فقد كانت محملة بالرمز والتخييل، مستمدة من

عناصر البيئة العربية الصحراوية، وكانت اللغة المجازية في كثير من الأحيان صعبة تحتاج إلىٰ البحث والتنقيب لمعرفة مراداها خاصة أن عناصر الصورة الاستعارية كانت لصيقة الصلة بالحياة البدوية التي لم نعاصرها، وكذلك كانت الألفاظ بدوية فصيحة غريبة في بعض الأحيان تحتاج جهدا لفض مغاليقها.

– لجأت النسوة إلىٰ العدول عن ظاهر الخطاب فخرج الخبر علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر تنزيلا لغير المنكر منزلة المنكر؛ لغفلته أو تغافله وسهوه لعدم جريه علىٰ مقتضىٰ علمه، وتعمده السؤال عما يعلم إجابته وكأنه جاهل به، أو يريد التحقق بسماعه من المسئول، كما كان من استجواب "معاوية" للنساء التي أوفدهن عليه، كما كان التعبير بالمظهر في موضع المضمر تعظيما للمظهر وإيضاحه وتقريره في ذهن السامع لإزعاجه ورجوعه عن غيه وضلاله، وتعظيم الجرم والذنب الذي ارتكبه ولذلك كثر إظهار اسم الجلالة وتكريره في مقام الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروع علىٰ المخاطب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم.

ثانيا : المصادر والمراجع :

١ - الأدب المفرد. محمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية١٣٧٥ هـ.

٢ - الاستعارة في الخطاب. إيلينا سيمينو، ترجمة : عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، ط١، العدد٢٠٠٠، المركز القومي للترجمة ٢٠١٣م.

٣- أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني، تح:محمود شاكر، ط١، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٤ - أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه.د. سامي عطا حسن،

http://omarkhattab.blogspot.com/2009/02/blog-post.html

٥ - الإصابة في تمييز الصحابة. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تح: عادل أحمد وعلي معوض، ط١، دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦ - الأصمعيات. الأصمعي، تح: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٥، بيروت.د.ت.

٧- الأغاني للأصفهاني، تح: د.إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين وأ. بكر عباس، ط١ ، دار صادر بيروت ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٨-الإيضاح في علوم البلاغة. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني،تح: د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م.

٩- البخلاء. أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، عناية: بسام عبد الوهاب الجابي، ط١، دار ابن حزم ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٠-البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان. محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تح: عبد القادر عطا، ط١، دار الاعتصام١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤م.

١١- البرهان في علوم القرآن. الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث.القاهرة١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م.

١٢- بلاغات النساء. أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الفضيلة.د.ت.

١٣- بلاغة السرد.د. محمد عبد المطلب،ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة٢٠١٣م.

١٤- البلاغة والأسلوبية.د. محمد عبد المطلب،ط٥، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ٢٠١٨م.

١٥- البيان والتبيين. الجاحظ. تح: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة ابن سينا . القاهرة ٢٠١٠م.

١٦- - البيان والتبيين. الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ١/ ٣١٢، مكتبة الخانجي.د.ت.

١٧- تاج العروس للزبيدي، تح: د.عبد العزيز مطر، ط٢، مطبعة الكويت ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م،

١٨- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، تح: مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.د.ت.

١٩- التحرير والتنوير. الطاهر ابن عاشور.دار سحنون.تونس.د.ت.

٢٠-التشبيهات.لأبي إسحاق ابن أبي عون الكاتب، تح:عبد المعين خان بتصرف، ط٢، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة.سوريا ٢٠١٥م.

٢١- التكرار بلاغة. دإبراهيم الخولي، ط٢، دار الأدب الإسلامي١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٢٢- التكرير بين المثير والتأثير. د.عزالدين علي السيد ، ط١، دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٢٣- الجرح والتعديل. لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الرازي، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد .الدكن.الهند١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م، ودار الكتب العلمية.
٢٤ - حاشية المير سيد شريف علىٰ المطول، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.
٢٥- الحمقىٰ والمغفلين. جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، شرحه: عبد الأمير مهنا، ط١، دار الفكر اللبناني ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.
٢٦- الحيوان. الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط٢، مصطفىٰ البابي الحلبي.د.ت.
٢٧-الخصائص. ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.د.ت.
٢٨- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني، قرأه: محمود شاكر، ط٣ ، مطبعة المدني. مصر، دار المدني.جدة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
٢٩- ديوان كثير عزة.جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت. ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
٣٠- السرد الروائي العربي قراءة في نصوص دالة.د. مدحت الجيار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.

٣١- سير أعلام النبلاء. محمد بن أحمد بن عثمان، تح: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصاغرجي، ط١١، مؤسسة الرسالة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٣٢- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام. جمعه: بشير يموت، ط١،المكتبة الأهلية.بيروت ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.

٣٣- شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣٤- الشفاء. الطبيعيات. ابن سينا، مراجعة:د.إبراهيم مدكور، تح:د.عبد الحليم منتصر وغيره، منشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي. إيران١٤٠٦هـ.

٣٥- صحيح البخاري.عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قطاع الثقافة.دار أخبار اليوم. د.ت.

٣٦- طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي، قرأه:محمود شاكر، السفر الأول، دار المدني بجدة.د.ت.

الطراز. يحي بن حمزة العلوي، تح:د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

٣٧- العدول بالمقال عن مقتضيات الظاهر من الحال في ضوء البيان القرآني. عبد الخالق رشيد،مجلة جذور.العدد٣٦، ربيع الآخر١٤٣٥هـ - مارس ٢٠١٤م.

٣٨- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص. بهاء الدين السبكي.دار الإرشاد الإسلامي.د.ت.

٣٩- العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر.د.ت.

٤٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.الحسن بن رشيق القيرواني، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل.بيروت.د.ت.

٤١- عناصر البلاغة الأدبية.د. نبيل راغب ، مكتبة الأسرة٢٠٠٣م.

٤٢-الفروق اللغوية. لأبي هلال العسكري.تح: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية.د.ت.

٤٣- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات.د. عبدالله صولة ، ط١، مسكيلياني للنشر والتوزيع.تونس٢٠١١م.

٤٤- قراءة قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي. د.محمود الربيعي، حوليات كلية دار العلوم١٩٧٢-١٩٧٣م

٤٥-الكتاب.سيبويه. تح: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٦- الكشاف.الزمخشري، تح:خليل مأمون شيحا، ط٣، دار المعرفة. بيروت ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٤٧- لسان العرب . ابن منظور. دار المعارف.د.ت.

٤٨- المثل السائر. ابن الأثير، تح: د.بدوي طبانة ود. أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر.د.ت

٤٩- المطول. سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

٥٠- مفتاح العلوم. يوسف بن أبي بكر السكاكي، تح: حمدي محمدي قابيل،المكتبة التوفيقية.د.ت.

٥١-مقاييس اللغة.أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٥٢- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح:محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي١٩٨٦م.

٥٣- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح. ابن يعقوب المغربي، دار الإرشاد الإسلامي.د.ت.

٥٤- موسيقىٰ الشعر. إبراهيم أنيس، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية١٩٥٢م

٥٥- النص المشكل.د. محمد عبد المطلب ، كتابات نقدية ٩٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، يوليو١٩٩٩م.

٥٦- نقد الشعر.قدامة بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٥٧- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.الرماني ، تح: محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام ، ط٥، دار المعارف٢٠٠٨م.

٥٨- هكذا تكلم النص. استنطاق الخطاب الشعري لرفعت سلام.د.محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٤٨٩
مقدمة	٤٩٣
تمهيد	٤٩٩
الفصل الأول: مباحث علم المعاني	
التكرار	٥١٠
أسلوب الحكيم	٥٢٢
العدول عن النمطية: خروج الخبر علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر	٥٣٥
التعبير بالمظهر في موضع المضمر	٥٥٣
الفصل الثاني : مباحث علم البيان	
التشبيه	٥٥٨
الاستعارة	٥٦٨
الفصل الثالث: مباحث علم البديع	
السجع	٥٨٤
الجناس	٦٠٦
الطباق	٦١٤
الاقتباس	٦٢٧
الخاتمة	٦٣٤
فهرس المصادر والمراجع	٦٣٧
فهرس الموضوعات	٦٤٣